

سلطنة عمان
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
مكتب الإفتاء

العقل

بين جماح الطبع وترويض الشرع



سماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

سلطنة عمان
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
مكتب الإفتاء
العقل
بين جماح الطبع وترويض الشرع
سماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

ما هذه العقلانية التي ينادون بها إلا ارتكاسة في الفكر وانتكاسة في الأخلاق، وقد أخذ في مجتمعنا جماعة -من الذين حملوا برهة من الزمن شعار الدعوة الإسلامية- يروجون لهذه العقلانية بكل الحيل، ويخدعون بها من حرم صحة العقل وسلامة التفكير، وقد بدأوا في وضع أسسها باعتراضهم على السنة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وإلغاء هذا الأصل من أصول مراجع الإسلام، وكانوا يتظاهرون - في بداية أمرهم - بأن الدافع لهم إلى ذلك غيرتهم على القرآن، ويزعمون أن المتشبعين بعلوم السنة حجبتهم الروايات المتراكمة عن النظر في هداية القرآن، وأن هذه الهداية لن يشعشع سناها إلا عندما يزاح عنها هذا الركام، وإنني لأقسم بالله قسم من بر في يمينه وصدق في قوله وجعل مخافة ربه رقيبا عليه أن ما يرددونه من هذه الأقاويل سمعته بعينه من قبل سبعة وعشرين عاماً.......

أصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها

سماحة الشيخ/ أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام للسلطنة

بجامعة السلطان قابوس

من ضمن سلسلة الدروس الفكرية التي يلقيها سماحته

في يوم الاثنين من كل أسبوعين ثم هذبها وضم إليها

بعض ما قاله في غيرها من المحاضرات مع زيادات أخرى



الحمد لله ذي الشأن الباهر، والسلطان القاهر، والبرهان الظاهر، سبحانه وسعت كل شيء قدرته، ونفذت في كل أمر مشيئته، لا تحد قدرته بحد، ولا تقيد مشيئته بقيد، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فهو المبدئ المعيد، المتقدس عن الشركاء والأنداد، وعن الصاحبة والأولاد، وعن الأعوان والأضداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا إخلاف لميعاده.

أحمده تعالى بما هو له أهل من الحمد، وهو أهل لكل حمد حقيق بكل ثناء، حري بكل شكر، وأستغفره سبحانه استغفار من أشفق من ذنوبه، ولجأ إليه تعالى من كروبه، وأتوكل عليه توكل من آمن به وعول في كل أمر عليه، وفزع من كل ملم إليه،

وأعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن مضلات الفتن، ومزلات الأهواء، ومن الخذلان في الأقوال والأعمال، ومن كل سوء علمناه أو جهلناه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأشهد أن سيدنا ونبينا وأسوتنا وإمامنا محمدا عبدالله ورسوله، وأمينه على دينه، وصفوته من خلقه، جمع الله فيه ما تفرق في غيره من الكمالات، وأيد دعوته بأعظم المعجزات، وخلد شريعته دون سائر الشرائع، وقطع بدعوته شأفة الفساد والمفسدين، واستأصل بحجته شبهات الإلحاد والملحدين، عليه من ربه أفضل صلواته وأزكى التسليم، وعلى آله وصحبه الغرر الميامين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

حاجة العقل إلى الوحي:

إن الله خلق الناس متعددي المشارب مختلفي المناهج متباينين في الأفكار والعمل، فأرسل إليهم رسله وأنزل إليهم كتبه ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وفضل بني آدم على كثير ممن خلق تفضيلا بما أودع فيهم من نور العقل الهادي إلى مهيع الرشد، وجعل هداية الوحي متممة لهداية العقل، إذ العقل من غير وحي يسدده ويبصره ويفتح له منافذ التفكير لا يلبث أن تنطمس بصيرته ويخبو شعاعه لما يغشاه من غواشي الأهواء وما يحيط به من المؤثرات النفسية والاجتماعية، فكم من عقول زاغت بأصحابها وهوت بهم في مهاوي سحيقة من دركات الضلال، وصدتهم عن قبول الحق والاستجابة لداعيه والنظر في براهينه.

فكم حكى الله سبحانه عن أقوام جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق منطلقين في مجادلاتهم من عقولهم السقيمة

وتفكيرهم الضيق وألبابهم الحيرى، منهم من جادل في وحدانيته تعالى قائلا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1].

ومنهم من جادل في البعث لنبو عقولهم المأفونة عن تصور إمكانه، وقد حكى الله هذه المجادلة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[2]، ورد على هذه الشبهة التي تصوروها أنها كالطود الأشم المنيف بما كشف لهم ولغيرهم أنها لا تساوي ذرة في الهباء إذ قال:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ

(١) سورة ص الآية (٥).

(٢) سورة يس الآيات (٧٧-٧٨).

يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

وكم تكرر في القرآن ذكر مجادلاتهم الباطلة وإتباعها بما يزهقها من حجة الحق النيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾[2]، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾[3].

(١) سورة يس الآيات (٧٩-٨٣).

(٢) سورة الإسراء الآيات (٤٩-٥٣).

(٣) سورة الإسراء الآيات (٩٨-٩٩).

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *

(١) سورة المؤمنون الآيات (٨١-٩٠).

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١).

وأكد بطلان شبههم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

(١) سورة ق الآيات (٢-١٥).

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[1].

ولا يخفى ما في هذه المجادلات العقيمة من الدلالة على أن هؤلاء كانوا مستأسرين لأوهام تصوروها حججا دامغة، فإذا هي تتلاشى متبخرة بوهج نور الحق الذي بددها كما تبدد الشمس بوهجها الضباب الذي يواريها عن الأبصار، وما كانت هذه الأوهام إلا نتيجة اغترارهم بعقولهم المريضة التي صدتهم عن الإمعان والتفكر في آيات الله الكونية وآياته البينات في وحيه المنزل، فتصاممت عن نذر الحق وتعامت عن براهينه فغدت حيرى هائمة في متاهات الضلال مرتكسة في قيعانه السحيقة، وما ذلك إلا لأن العقل إن لم يكن معززا بتوفيق الله سبحانه وموصولا بهداية الوحي كانت غاية صاحبه الدمار والهلاك والعياذ بالله.

(١) سورة الحج الآيات (٥-٧).

من أجل هذا كان الناس مطالبين باتباع الحق الذي أنزله الله والاستجابة لرسله والاسترشاد بوحيه، وبالوحي قُطع دابر شقاقهم وأُعذر إليهم من قبل ربهم، فلم يبق لهم ما يستمسكون به من الأعذار عن الاستبصار بنور الحق واتباعهم لداعيه، وذلك ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾[2].

فإذا تضافر العقل والوحي كان الهدى وكانت النجاة وأديا بمن اتبعهما إلى سلامة المسير وسعادة المصير، فإن العقل السليم هو الأساس الذي يشيد عليه الوحي دعائم الهداية فيشمخ بنيانها وتشتد أركانها.

(١) سورة الإسراء الآية (١٥).

(٢) سورة تبارك الآية (٨-٩).

أما إذا تباينا فإن تلك هي الكارثة التي تودي بمن اغتر بعقله المحدود القاصر واستغنى به عن هداية الوحي، إذ العقل لا يعدو أن يكون طاقة من الطاقات البشرية المحصورة التي لا تتعدى حدودها، وما مثله إلا كمثل الحواس الظاهرة فإن كل حاسة منها لا تتجاوز حدودها، فحاسة البصر مثلا لا تدرك إلا ما حولها ولا تخترق الحجب الكثيفة لتدرك ما وراءها، وكذلك العقل تحجبه حجبا شتى عن الوصول إلى الحقيقة منها ما يرجع إلى الطبيعة الكونية ومنها ما هو من مؤثرات النفس أو البيئة والمجتمع.

الوحي والعقل السليم يوصلان إلى مقاصد الشرع

كما أن العقل لا يستوسق نوره إلا بما يتممه من الشرع، كذلك الوحي لا تبزغ شمسه إلا في آفاق العقل السليم، وبدونه يكون النداء به كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فإن تعطيل طاقة العقل في استلهام مقاصد الشرع يجعل الإنسان أسير الظواهر الشكلية التي تحول بينه وبين إدراك مضامين

الشرع، وذلك هو الذي أدى بأسارى الألفاظ إلى العزوف عن اقتناص الحقائق واستجلاء الدقائق ببصيرة العقل؛ فكانوا بمنأى عن الحق لما حال بينهم وبينه من حجب التقليد الكثيفة.

فقد اشتغل هؤلاء بالشكل عن المضمون وبالصورة الظاهرة عن الحقيقة الباطنة كما فعل أولياؤهم من قبل فحاروا وهاموا وباؤوا بالخسران العظيم، وما أجدر ذا البصيرة بأن يجعل وحي الله تعالى نصب عينيه، يمزق بنوره ظلمات الطبع، ويسلك بدليله مهيع الرشد، مع الاستعانة بدلالة العقل على اكتناه حقائقه الغامضة، وترويض الفهم للغوص في لجج بحاره، لاقتناص جواهر فوائده الغالية، فبقدر تفاوت أرباب العقول في الحجى وسعة المدارك وإرسال أشعة البصيرة لتمزيق حجب الجهل يختلفون في الوصول إلى مقاصد الوحي، فمنهم المصلي ومنهم المجلي ومنهم من يقعد به العجز حتى لا يرى بعينيه غبار السابقين.

وبذلك يتفاوتون في الارتقاء إلى معارج الاهتداء، فكم منهم من لم يحالفه الحظ ليتجاوز بداية السلم، وكم منهم من صعد به التوفيق إلى أرفع الدرجات:

وتلك حظوظ للإرادة قسمها　　وحكمة من يختارنا ويخير

فالعقل نور رباني أودعه الله فطرة الإنسان ليستهدي بشعاعه بين دياجير الطبيعة المطبقة، فإذا تضافر مع الأخذ بحجزة الشرع الشريف تم سناؤه وعم هداه، وكان كمالا للنعمة وتماما للرشد.

تباين الناس في تقدير العقل:

عندما كان الخلاف بين الأمة تباين الناس في تقدير العقل فكان منهم من غره عقله فظن أن الهداية بحذافيرها جمعت في تضاعيف طاقاته؛ لذلك آثره على الشرع وجعله مصدر الأحكام وموئل الاحتكام، وهو إفراط في تقديره ما كان

للبيب أن يرضى به وهو يعلم أنه مخلوق أطرت جميع ملكاته في إطار محدود, وما أوتي من العلم إلا قليلا.

ومنهم من كان خلاف ذلك فأطفأ هذه الشعلة النورانية بتعطيلها وعدم استخدامها في استلهام الحقائق واستجلاء الدقائق، فوقع في تناقض عجيب واضطراب فاضح في فهمه لخطاب الشرع, ومنهم من وفقه الله تعالى فجعل شرع الله تعالى نصب عينيه ومصدر هدايته, ولم يكفر نعمة العقل بتعطيله عما خلق من أجله، بل جعله من وسائل فهمه وإدراكه لما ينطوي عليه الشرع من حكم وأحكام, وما تضمنه الوحي من حقائق ودقائق، فظفر بمجامع الخير ومعاقد التوفيق.

هذا; وقد كان من نتائج إهمال العقل وتعطيل ملكاته في تشخيص المراد من نصوص الوحي الوقوع في تناقضات غريبة, أدت بأصحابها إلى تجاهل محكمات الآيات, والانسياق وراء المتشابهات, فوصفوا الله سبحانه بصفات خلقه، متجاهلين

نصوص تنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله، كما أدى بهم الشطط إلى ركوب الصعب، والهيام في التناقض التي تبرأ ساحة الشرع عنه، ولا أريد أن أطيل في ضرب الأمثلة بما وقعوا فيه من شقاق بعيد، فقد بسطت ذلك في محله مما كتبته أو ألقيته.

وفي مقابل هؤلاء نجد الذين أفرطوا في تقدير العقل غاصوا في أعماق ما كانت لهم دراية ولا طاقة بالعوم فيها؛ فوقعوا في ضروب من الحيرة أدت بهم إلى اضطراب عجيب في الفهم، ناهيك أن اللجاجة وصلت بهم إلى التعويل المطلق على العقل في مجال التشريع، وما كان للشرع عندهم من وظيفة إلا بيان مضامين العقل أو تأكيدها، وقد كان على رأس هؤلاء أصحاب واصل بن عطاء.

أما الذين وفقوا للأخذ بحجزة الشرع مع الاستبصار ببصيرة العقل في استلهام الحقائق فقد استمسكوا بالعروة الوثقى؛ التي لا انفصام لها فعادوا بكلتا الحسنيين عندما أخذوا بكلتا الهدايتين، فلم يُحمّلوا العقل فوق طوقه ولم يقصروه دون

طوره، كما أنهم لم يختلقوا صداما بينه وبين الشرع، إذ عرفوا إن سبيلهما واحد، وأن هدايتيهما تخرجان من مشكاة واحدة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

العقل بين المدرسة الاعتزالية والمدارس العقلية المعاصرة

عندما انطوى عهد المدرسة الواصلية قل الجدل فيما يتعلق بهذا الجانب، إلا أن الخلاف استحكم بين الذين رضوا بالقشور عن اللب، وعولوا على ظواهر العبارات دون إرسال البصيرة لاقتناص شوارد معانيها، وبين الذين حرصوا على نصب الشرع حكما يعول عليه، وجعلوا من العقل دليلا في سبيل الوصول إليه، وقد وصل الشقاق بين الطائفتين أوجه فحمي وطيسه واستعر لظاه حتى امتدت ألسنته لتأتي على ما بقي من ألفة ووفاق.

وقد تُنوسي الجدل الاعتزالي ردحا من الزمن بعد انطواء عصرهم الحافل بالمجادلات العقلية، غير أن الزمن لا يلبث أن يعيد المفقود ويطوي الموجود كما هو ديدنه، فقد لاحت في الأفق الثقافي والفكري بوادر انتشار تلك المجادلات من جديد ولكن

بأسلوب آخر وبواعث تختلف كل الاختلاف عما كان عليه المعتزلة، إذ التأريخ لا يزال يذكر ما كان للمعتزلة من دور بارز وجهود مشكورة في صدّ هجمة الملاحدة على الإسلام، وقد استخدموا في التصدي لهم سلاحهم المعروف وهو الجدل المنطقي، ومهما يكن من خلاف بينهم وبين سائر الأمة أدى إلى أن يشتد الخصام بين الطائفتين وأن تتسع الفجوة وتعظم الجفوة بينهما حتى صار التراشق بالتهم والتنابز بالألقاب ديدنهم جميعا، فإننا لا نتهم المعتزلة – مع ما بيننا وبينهم من خلاف – أنهم كانوا يناوؤن الإسلام وأنهم يسعون إلى فت عضده وشق عصاه، ولكنهم غلوا لغلو خصومهم، وكل إفراط يؤدي إلى إفراط مضاد وتلك هي سنة الله في خلقه.

أما إذا جئنا إلى بوادر المجادلات الجديدة التي أخذت تنتشر بعدما لاحت في الأفق فإننا نجد لها طابعا آخر يخرج بها عن هذا المنهج، وينأى بأصحابها عن ذلك الغرض الذي كان من قبل، فكم استخدم العقل اليوم سلاحا فتاكا يفري أديم

الإسلام ويحز غلاصمه ويقطع أوصاله، وقد تنبه لهذا أستاذ الأدب أحمد أمين فيما كتبه عن المعتزلة قبل عقود متطاولة من الآن، إذ أومى إلى أن دوافع المعتزلة إنما كانت ما يحملونه من هم الإسلام والدفاع عنه، أما دوافع هؤلاء الذين لجوا من جديد فهي بخلاف ذلك، إذ في نفوسهم من النوايا ما يجب أن تكون الأمة منه على حذر، وهذا لا يعني تبرئة ساحة الاعتزال من الأخطاء التي دفعت بالأمة إلى ما كانت في غنى عنه، وإنما الإنصاف من شيمة المؤمن وقد ربى عليه القرآن أهل الإيمان، ناهيك بقوله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[(١)].

وقد رزئت الأمة قديما بالأمم التي دخلت في دينها وهي تحمل أوزارا من عقائدها السابقة فأفرغتها في وعاء عقيدة الإسلام، وقد أدى ذلك إلى لبس الحق بالباطل، وشوب أفكار

---

(١) سورة المائدة الآية (٨).

كثير من أبناء الأمة بالأكدار، مع اندساس جماعة من الزنادقة في صفوف الأمة ليتولوا نخرها من الداخل، فكانت المصيبة بذلك كله بالغة والخسارة فادحة، ورزئت أخيرا بأصناف من البشر ينتمون إليها، ويتحدثون بلسانها، ولكنهم يحملون نفوساً يتأجج بين حناياها سعير الحقد على الإسلام، فلا يفتأون يسعون في نقض عراه وهدِّ أركانه وتقويض صرحه ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]، وكم من بين هؤلاء من يحمل شعار الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ليلوّح به بين الدهماء الغافلة تغريرا بها وتلبيسا عليها أمرها، وقد جعل هؤلاء من قضية العقل والاعتماد عليه شراكاً لاقتناص المغفلين، ومعولا لنقض أسوار الدين، وبهذا يستبين الفرق بينهم وبين أصحاب المدرسة العقلية في القرون الغابرين.

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٢).

دور اليهود في إقصاء النص واعتماد العقل

على أن الإنسان باستقصائه دراسات الدارسين لهذا الجانب يستيقن أن تصرف هؤلاء وتحركهم في أوساط المجتمعات ما هو إلا نتيجة مخطط يهودي رهيب – وما أكثر المصائب التي توالت على الأمة بل على الإنسانية كلها قديما وحديثا من اليهود – وقد وجدوا من غرور هؤلاء وما يعتمل في نفوسهم من حب الظهور والشهرة بين الناس؛ سبيلا إلى أن يدفعوا بهم إلى هذه المسالك، فكانوا لهم أداة طيّعة استغلوها استغلالا سيئا في محاولة زعزعة أركان الحق وتمييع ثوابت الدين، وهذا طبع متأصل في نفوس اليهود؛ الذين مردوا على الإلحاد والفساد في عهود النبوات.

فكم كابد موسى عليه السلام منهم العنت وصبر على لأوائهم طمعا في هدايتهم، إذ لم تكد أقدامهم تجف من آثار الثرى –

عندما شق لهم البحر فأنجاهم الله باجتيازه وأهلك به عدوهم اللدود – حتى قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[1]، كفرانا بنعم الله التي أسبغها عليهم، وجحودا لآياته الباهرة التي أراهم إياها رأي العين، وما كاد يفارقهم إلى ميعاد ربه حتى اتخذوا العجل إلها معبودا، وانقلبوا على خليفته فيهم هارون عليه السلام شرّ منقلب، وظلوا كذلك في عماهم يعمهون.

وقد ابتلاهم الله سبحانه بالنعم والنقم، فلم يزدهم ذلك إلا عنادا وإلحاداً، وصار الحقد من طبعهم الذي لا ينفكون عنه، فظلوا عبر القرون الخالية لا تفتأ نار حقدهم وارية في نفوسهم على جميع الإنسانية، لا سيما المسلمين لما آتاهم الله من الخير، واختصهم به من هداية القرآن والنبوة الخاتمة؛ التي شع منها نور الحق، وأدرجت في تضاعيفها أسرار الحقيقة، ومما زادهم حقدا وكراهية لهذه الأمة ما انطوى عليه كتابها المنزل للهداية والإعجاز من هتك أستارهم، وتعرية دخائلهم، وفضح

(١) سورة الأعراف الآية (١٣٨).

تأريخهم الحافل بالمؤامرات على الحق والدين، حتى لم يتورعوا عن قتل الأنبياء الذين بعثوا لهدايتهم وإنقاذهم.

ولا ريب أن استبصار هذه الأمة بالقرآن الكريم واستهداءها بهدي نبيها عليه أفضل الصلاة والتسليم ضاعف من هذا الحقد لما في ذلك من فتح بصائرها على أحوال اليهود الخسيسة، وإثارة حفائظها ضدهم بما يتلقونه من الكتاب والسنة من التحذير منهم، وشحذ عزائمهم على تحديهم، فانصب همهم في زعزعة هذه الأمة، وإبعادها عن هذين الحصنين الحصينين، ليتسنى لهم القضاء عليها، وتذويب معنوياتها، وإماتة كرامتها، وتجريدها من هويتها على الإطلاق.

وقد وجدوا وسيلة ملائمة لذلك في رفع شعار العقلانية بينها للتشكيك فيما جاء به القرآن الشريف والسنة النبوية، لا لأن الكتاب والسنة يتصادمان مع العقل، وإنما هذه حيلة تسري في نفوس الذين حرموا من نعمة العقل وهم يحسبون أنها جمعت

لهم بحذافيرها فاغتروا بعقولهم المريضة، وتطاولوا بها على قواطع الوحي طمعا منهم في دكدكة أطواده، وتجفيف ينابيعه:

كناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

على أن تلاوة القرآن في أوساط هذه الأمة وتعاقب أجيالها على حمل أمانته وتوارث تقديسه أعظم ما يؤرق ليل اليهود ويقض عليهم مضاجعهم، فإن ذلك مما يورثها دراية بأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، كما أن ذلك أعظم ما يبدد ظلمات الجهل بحقيقتهم لدى العالم كله، فكم أدرك الناس حتى أولئك الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولم يتبعوه حقيقة طواياهم من خلال ما يصل إلى بصائرهم من أنبائهم التي قصها القرآن، وهذا مما يجعلهم منبوذين عند كل الأمم، ومكروهين في جميع أدوار التأريخ، كما هو معهود فيهم، ولم يجدوا وسيلة لطي هذه الصفحة أنجح من إلهاء الناس بتقديس العقل عن تقديس النص الذي يعدونه مصدر بلائهم.

وهم لا يعزب عن مخيلتهم ما أورثهم انحرافهم في الفكر والأخلاق وفساد طبائعهم من محن كابدوها في عصور التأريخ، منذ شن عليهم البابليون حربا أهلكت حرثهم ونسلهم، وأبادت خضراءهم ويابسهم، وأتت على طارفهم وتليدهم، حتى كانوا عبرة في التأريخ وعظة للأمم، وما كادوا يستنشقون نسائم الحرية ويذوقون لذة الأمن – عندما راشتهم الأيام بلطفها بعدما برتهم بشدتها – حتى عادوا سيرتهم الأولى، ولم تفدهم العبر أو تغنهم النذر، بل كانوا أوغل في الفساد والضلال، فدارت عليهم الكرة الثانية؛ التي قادها أنطونيوس إمبراطور الروم، فأذاقهم من العذاب أمره وأراهم من النوائب أحلكها، وظلوا يرسفون في قيود المذلة والهوان ويتجرعون غصص اللأواء والبؤس وهم في طغيانهم يعمهون، وفي ضلالهم يتيهون.

وقد انطوت القرون قرنا بعد قرن تغدو عليهم سِنوها وتروح مسنتة[1] عجافا، وما نكبتهم من النازية في القرن المنصرم عن ذاكرتهم ببعيد، فلا غرو مع هذا أن نجدهم – وهم أهل المكر والخيانة واللؤم – يسعون إلى استلال كل فكر نيّر ومعتقد سليم من أدمغة أمة الإسلام لطمس بصائرها وتغوير ينابيع الفضائل فيها، لأنها بما أوتيته من بصائر القرآن وهداية السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أقدر الأمم جميعا على تصور مؤامراتهم وتصويرها، فكانت منهم هذه الحملة لتمييع النصوص القرآنية بنشر الفكرة العقلانية وتعميقها في نفوس الناس لاسيما المسلمين.

وهذه حقيقة سجلتها أقلام اليهود أنفسهم ومن بينهم سارتر رائد الفكرة الوجودية الإباحية وهو يهودي بلا ريب فقد قال في كتابه "تأملات في المشكلة اليهودية": "إن اليهود متهمون بتهم ثلاث كبرى، هي عبادة الذهب، وتعرية الجسم البشري،

---

(١) قاحلة.

ونشر العقلانية المضادة للإلهام الديني، ويقول إن التهم كلها صحيحة! ثم راح يقدم لكل منها ما يقدر عليه من المعاذير.

قال عن عبادة الذهب إن اليهود مضطهدون في كل الأرض وكل التاريخ، وإنهم لابد أن يسعوا إلى امتلاك القوة ليقاوموا هذا الاضطهاد. والوسيلة التي لجأوا إليها هي السعي إلى امتلاك الذهب وتجميعه ليكون لهم عدة وقوة!.

وقال عن تعرية الجسم البشري إن اليهود متهمون بقبح أجسامهم وعدم استقامتها؟ فأرادوا أن يثبتوا للبشرية أن القبح كامن في الجسم البشري ذاته لا في أجسام اليهود وحدهم! فعملوا على تعرية الجسم البشري ليستيقن البشر من هذه الحقيقة!.

أما نشر العقلانية المضادة للإلهام الديني فقد كشف فيه الغطاء دون مواربة! قال: إنه طالما كان البشر يؤمنون بالدين، فسيظل يقع على اليهود تمييز مجحف على اعتبار أنهم يهود، أما إذا

زال الدين من الأرض، وتعامل البشر بعقولهم، فعقل اليهودي كعقل غير اليهودي، ويومئذ لن يتميز اليهود بكونهم يهوداً، ولن يقع عليهم التمييز المجحف، وسيعيشون في سلام مع غير اليهود))".[١]

ومن هنا أثبت الأستاذ عبد السلام البسيوني المفكر والأديب الإسلامي أنه بالبحث لم يخامره دهش ولا عجب عندما قرأ أن بذور العقلانية بذور يهودية، ومعنى ذلك أن حملة هذه الدعوة إنما يدورون في فلك المخطط اليهودي الرهيب، الذي يسعى إلى نسف القيم الإنسانية، وصبغ العالم كله بصبغة الإباحية ليتجرد من كل ما يصون إنسانيته، ويحفظ له الشرف والكرامة.

---

(١) العقلانية هداية أم غواية، ص١٠، وانظر، نقض أصول العقلانيين، سليمان بن صالح الخراشي، دار علوم السنة، مكتبة صيدا، ج٢ص٢١ ، ترتيب المكتبة الشاملة.

خاتمة سيئة يسجلها التاريخ

لمثل هذه النداءات

ما هذه العقلانية التي ينادون بها إلا ارتكاسة في الفكر وانتكاسة في الأخلاق، وقد أخذ في مجتمعنا جماعة -من الذين حملوا برهة من الزمن شعار الدعوة الإسلامية- يروجون لهذه العقلانية بكل الحيل، ويخدعون بها من حرم صحة العقل وسلامة التفكير، وقد بدأوا في وضع أسسها باعتراضهم على السنة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وإلغاء هذا الأصل من أصول مراجع الإسلام.

وكانوا يتظاهرون – في بداية أمرهم – بأن الدافع لهم إلى ذلك غيرتهم على القرآن، ويزعمون أن المتشبعين بعلوم السنة حجبتهم الروايات المتراكمة عن النظر في هداية القرآن، وأن هذه الهداية لن يشعشع سناها إلا عندما يزاح عنها هذا الركام، وإنني لأقسم بالله قسم من بر في يمينه وصدق في قوله وجعل

مخافة ربه رقيبا عليه أن ما يرددونه من هذه الأقاويل سمعته بعينه من قبل سبعة وعشرين عاماً عندما حضرت ملتقى للفكر الإسلامي بمدينة الجزائر عاصمة القطر الجزائري الشقيق، وهو الملتقى الخامس عشر الذي كان مخصصا للقرآن وعلومه، وكان من بين الحضور في ذلك الملتقى رجل طالما خدع الناس بما كان يتظاهر به من خدمة القرآن، وقد زعم أنه اكتشف نوعا من أنواع إعجازه وهو الإعجاز الرقمي؛ الذي يظهر في تكرر بعض الحروف في بعض السور بمقاييس مقدرة تتفق مع اعتبارات معينة ككون السورة ابتدئت بذكر أسماء حروف معينة من حروف الهجاء هي التي يغلب تكرارها أكثر من غيرها في تلك السورة.

وكان قد زعم أنه تمكن من خلال الحاسب الآلي من الوصول إلى هذه الحقائق المحيرة، وفي ذلك الملتقى أثيرت قضايا ترجع إلى مكان السنة من القرآن كتخصيص عموماته، وتقييد مطلقاته، وبيان مجملاته، فما كان من ذلك الرجل المشار إليه إلى

أن انبرى على المنصة في دفع ذلك زاعما أن هذا مما يغمط القرآن حقه في التشريع ويزعزعه عن مكانه في الهداية، وابتدأ ترويج فكره في الملتقى بذكر آيات فيها وعد المؤمنين بالنصر والتمكين كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[3].

وأتبع ذلك أنه مما يدعو إلى التساؤل ما عليه المسلمون اليوم من الذل والمهانة وما أصابهم من الخزي والعار، إذ فئة قليلة أصبحت غالبة عليهم آخذة بتلابيبهم، متحكمة في أمورهم، وقال: إن ذلك يرجع إلى عدم إيمانهم، فهم غير مؤمنين لأنهم كذبوا القرآن وما جاء به، وذكر أن من أبين الأمثلة على ذلك أن الله تعالى يقول في فاتحة سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا

(١) سورة الروم الآية (٤٧).
(٢) سورة الأعراف الآية (١٢٨).
(٣) سورة الحج الآية (٤٠).

﴿وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١)، غير أن المسلمين كذبوا هذا كله فأنكروا ما جاء بعد هذه الآية مباشرة وهو قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، فإنهم أعرضوا عن هذا الحكم بدعواهم أن من الزناة من تكون عقوبته غير الجلد وهو الرجم.

وأخذ يستفز مشاعر الجهلة الأغبياء ويدغدغ عواطفهم بما يتظاهر به من الغيرة على القرآن حتى قال إفكا وخداعا: أرأيتم لو أن القرآن نص على شيء والعالم بأسره قال بخلافه أليس واجبنا أن نتبع القرآن، وندع قول من عارضه كائنا من كان؟، وما لبث الذين استهوتهم هذه العبارات الخادعة أن رفعوا عقيرتهم ضاجين بالتكبير إعجابا بما قال.

---

(١) سورة النور الآية (١).

(٢) سورة النور الآية (٢).

وكنت من بين الذين تصدوا لإفكه وكشفوا خديعته، فقد تعقبته على المنصة وقلت -ما معناه-: إن المسلمين لم يلطموا هذه اللطمة ويرتكسوا في هذا الحضيض ويلبسوا هذا الذل عندما كان حد الرجم يقام بينهم كسائر الحدود المشروعة، وإنما كانت هذه عاقبة إهمالهم الحدود ومن بينها الرجم الثابت بالسنة والإجماع واستعاضة حكم الجاهلية عنها، فكانت هذه ثمرة لما غرسته أيديهم، على أنهم عندما كانوا يأخذون بالكتاب والسنة ويطبقون أحكامها ويستمسكون بعروتها دانت لهم الأمم، وانقادت لهم الشعوب، وانتصروا على أشد الدول عتوا وأعظمها قوة وأكثرها عدة وعتادا، ناهيكم أنهم محوا إمبراطورية الأكاسرة من خريطة الوجود، وكادوا يفعلون ذلك بنظيرتها إمبراطورية الأقاصرة، وقد كانتا في مقدمة إمبراطوريات العالم عظمة وشأنا، فمن مغالطة الحقائق أن يزعم زاعم أن انتكاسة هذه الأمة اليوم هي نتيجة القول بمشروعية الرجم.

وسرعان ما تكشف ذلك الأفاك المخادع عن سريرته التي يبطنها، وحقيقته التي ظل يواريها إذ ما لبث إلا قليلا حتى نادى أنه رسول الله، وطالب الناس أن يؤمنوا برسالته ويتبعوه، وقد رأيت ذلك بنفسي في رسالة وجهها إلى الناس أطلعني عليها أحد المسئولين في بلادنا جاءته صورتها من مسئول الأمن في البلاد مرفقة برسالة منه فيها التعميم بمنع دخوله السلطنة بأي حال من الأحوال، وقد كان له القدر بالمرصاد فما لبث أن قطع الله دابره إذ سلط عليه من جعل حتفه على يديه فأرداه قتيلا، ولم يغن عنه من كان يحركه في هذا الاتجاه ويدفع به إلى هذا الإفك.

والرجل المذكور هو المسمى رشاد خليفة - ولم يكن في شيء من الرشد – وكان مما زعمه في رسالته تلك أنه الرسول المعني في الآية الحادية والثمانين من سورة آل عمران أي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]، كما زعم أن معجزة رسالته ذلك الإعجاز الرقمي الذي اكتشفه في القرآن.

ومهما تكن عند أمرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وما يدرينا ما الذي كان يبيته للناس من الضلال لو أمهلته الأيام، فلعله لو امتد به الزمن لما اكتفى بزعمه أنه رسول الله، بل ربما تطاول فوق ذلك فزعم أنه رب العالمين، كما كان ذلك من الباب – إمام البابية – الذي ادعى الألوهية بعد ادعائه النبوة، والله المستعان.

ومن كان في شك مما ذكرته عن هذا الرجل، وما حكيته من قوله فليرجع إلى تصوير ذلك الملتقى وتسجيل وقائعه، وبإمكانه الرجوع إلى مجلة الأصالة الجزائرية التي نقلت جميع وقائع ذلك الملتقى.

---

(١) سورة آل عمران الآية (٨١).

إقصاء الروايات واكتفاء بالقرآن

شبهة ورد

ما أشبه الليلة بالبارحة، فما قاله ذلك الأفاك الأثيم وما تظاهر به من الغيرة على القرآن الكريم ليتمكن من الانقضاض على السنة نسمعه بعينه اليوم من فئة ظهرت بيننا، كثيرا ما تظاهرت بالغيرة على القرآن زاعمة أن الأخذ بالروايات يؤدي إلى البعد عن هدايته والإعراض عن نوره، وقد أدى بهم اللجج في الخصومة والإمعان في الخداع إلى الزعم بأن السنة لا تتوقف على الروايات، وأن أحدا لا يكلف البحث عنها من تحت ركامها المتراكم عبر القرون الخالية، وإنما وحدها تأتي إلى كل أحد كما تشرق عليه شمس النهار.

وما هذه إلا من مغالطاتهم العجيبة، وهي دليل عمى بصائرهم وإظلام تفكيرهم، فإنهم ينظرون إلى الناس كأنهم قطيع من البهائم تنطلي على عقولهم كل حيلة من حيلهم، وما

يدرون أن للناس بصائر تفرق بين الحق والباطل وتميز بين الحقيقة والوهم.

فإن من بدهيات العقول أن السنة لا يمكن أن يتوصل إليها إلا بطلبها من مظانها إذ هي لم تفرد بالجمع والتدوين حتى تكون محفوظة كالقرآن، على أن القرآن نفسه لا يتنزل على كل قلب من غير تعلم وحفظ، فكم من أمي لا يعرف من القرآن شيئا، ومنهم من لا يعرف منه إلا سورا معدودة من قصار السور، وإن كانوا يعنون بذلك السنة العملية التي يستنها الناس -كما جاء في حوار أجري مع من تولى كبر أمرهم - فإن الناس متباينون في أحوالهم مختلفون في سننهم فليت شعري بأي منهم يقتدى وبأي مسلك من مسالكهم يهتدى؟!.

وما أعجب حال من أسقط حجية سنة رسول الله ﷺ الذي قرن الله طاعته بطاعته بل جعلها من صميم طاعته واتخذ من سنة غيره من البشر حجة ودليلا في شرع الله الذي لم يأتنا إلا من طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولضلال عقول هؤلاء وانحراف فكرهم أخذوا يصورون خصومة بين الأخذ بالسنة واتباع منهج السلف الصالح من أهل الاستقامة في الدين، فكم ملأوا الدنيا ضجيجا استنكارا لاتباع رأي مبني على حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، وإن كانت حجته أوضح من الشمس في رابعة النهار، بدعوى أن ذلك خلاف ما كان عليه عمل أهل الاستقامة، حتى إن عرفوا عن أحد أنه يختم صلاته قبل التسليم بالدعاء المشهور: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات.."، عدوا ذلك منه بدعة مخالفة لمسلك أهل الحق والاستقامة مع أن الإمام الربيع بن حبيب – رحمه الله – روى في مسنده الصحيح عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، وكم وجدنا في آثار أسلافنا – رحمهم الله – استحباب قراءة هذا الدعاء في التشهد الأخير قبل السلام.

شعارات ومزاعم العقلانيين

كم أثاروا من صخب صخت منه الآذان لتهويل عمل برأي ترجح عند قائله بدليل شرعي في قضية خلافية للرأي فيها مجال واسع زاعمين أن ذلك مما ينقض عرى مذهب أهل الاستقامة عروة عروة، مع أن الأخذ بذلك الرأي هو ما عليه طائفة من أساطين الاستقامة منذ قديم، وطالما رفعوا عقيرتهم في تبديل حكم المسائل وتحويلها من مسائل الرأي إلى مسائل الدين من غير دليل يستندون إليه إلا المجادلة بالباطل لإدحاض الحق.

وكل ذلك إنما هو لأجل مخادعة العامة وإظهار أنفسهم عندهم بمظهر أهل الغيرة والمحافظة على الحق، وأن من سواهم لم يبق في نفوسهم من الغيرة شيء، لذلك صاروا – في زعمهم – أتباع كل ناعق، وأنهم آخذون في هدّ صرح الاستقامة بمعاول الاجتهاد الذي يزعمونه، هكذا كانوا يجادلون بالباطل

ليدحضوا به الحق، ولكن شأن الحقيقة أن تتكشف ولا يلبث ثوب الزور أن يبدي سوأة لابسه، ولله در من قال:

ثوب الرياء يشف عما تحته   فإذا التحفت به فإنك عار

إذ لم يلبثوا إلا يسيرا حتى فضحهم الله تعالى بكشف خبايا نفوسهم وطوايا ضمائرهم؛ إذ لم يكتفوا برد السنة المطهرة حتى انقضوا على نصوص القرآن يردونها بضروب من التأويل الباطل الذي يرفضه العقل والنقل.

وما أشبه الوسيلة بالوسيلة والغاية بالغاية، فقد اتخذوا بادئ ذي بدء من الغيرة على القرآن شعارا كاذبا للتمويه على عامة الناس وتضليل عقولهم، كما صنع سلفهم رشاد خليفة وانتهوا إلى ما انتهى إليه من إنكار ثوابت الدين، والتلاعب بنصوص القرآن، ولست بحاجة إلى تفتيش عن دليل يثبت ارتباط فكرهم بفكره وغايتهم بغايته فحسبي كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد أخبرنا الله سبحانه بأن تشابه الأقوال إنما ينشأ عن تشابه قلوب قائليها فهو

عز وعلا القائل: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]، وما أصدق من قال:

وللشيء على الشـ   ـيء مقاييس وأشباه اذا
يقاس المرء بالمرء   ما المرء ما شاه

ولئن كان المرء يقاس على غيره إذا ماشاه، فكيف لا يقاس عليه إذا ضاهاه في أقواله وأعماله؟! ولا أظن -بعد هذا- يحتاج أحد إلى عناء ليثبت أن هؤلاء يصدرون مع سلفهم رشاد خليفة من مستنقع واحد، وأن اليد التي كانت تحركه هي التي عادت تحركهم، فإن لم يكن ذلك واضحا بداهة فليس يصح في الأذهان شيء.

وإليك صورا مما جاءوا به من الإفك لتغيير ثوابت الدين وإنكار حقائق القرآن:

---

(١) سورة البقرة الآية (١١٨).

١) زعموا أن التقام الحوت ليونس عليه السلام لم يكن ابتلاعا له في جوفه وإنما أطبق عليه بفكيه، فظل بينهما حتى لفظه زاعمين أن دعوى الابتلاع خرافة منشؤها أساطير أهل الكتاب بدليل أنها مذكورة في الإنجيل.

٢) زعموا أن الذي عنده علم من الكتاب ما جاء بعرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، وإنما ذلك كناية عن الإتيان به بسرعة بالوسائل المعهودة، وذلك أنه استطاع بحيلته أن ينتزعه وينقله بوسائل النقل إلى أن جاء به إلى سليمان في مدة قصيرة إذا ما قيست بما يحتاج إليه هذا العمل من الزمن عادة.

٣) أنكروا خوارق العادات جملة فكذبوا بكل كرامة وعدوها مثارا للسخرية والاستخفاف، وحملوا ما ذكر في القرآن من معجزات الأنبياء على ضروب من التأويل يرفضها الذوق السليم وتأباها اللغة الصحيحة.

٤) صوروا الكون في صورة الجهاز الذي يتحرك تحركا آليا وفق نواميس الطبيعة، من غير أن يكون في تضاعيف أحداثه ما هو جزاء للناس على خير صنعوه أو شر قارفوه، وبناء عليه أنكروا أن يكون لما يأتي به الناس من صلاح أو فساد أي أثر على ما يلقونه في حياتهم من نعمة أو نقمة.

٥) أعرضوا عن سنة النبي ﷺ إعراضا شائنا أدى بهم إلى الاستخفاف بهديه عليه أفضل الصلاة والسلام، وتجاوزوا ذلك إلى اتهام شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالوقوع في الخطأ.

٦) صدوا عن ذكر الله؛ الذي ينير القلوب، ويفتح البصائر، ويصل العبد بربه سبحانه، حتى أنهم استخفوا بالدعاء، والأذكار المشروعة أدبار الصلوات، أو عند إقبال الليل، أو النهار، أو إدبارهما.

٧) تجرأوا وجرأوا غيرهم على الاستخفاف بالعلم وأهله، والقول على الله بما ليس لهم به علم، وزينوا ذلك لأطفال لم يشبوا عن الطوق.

وهذا كله إنما منشؤه إغراقهم في الفكر المادي المظلم، وإغماض أعينهم عن آيات الله سبحانه الناطقة في كتابه والصامتة في الأنفس وفي الآفاق، فهم يتجاهلون قدرة الله تعالى الواسعة؛ التي تقلب الكائنات عن طبائعها، وتجعل ما يستعصي على العقول أن تستسيغه حقيقة واقعة، لا تجد أمامه العقول سبيلا إلا أن تسلم تسليما.

قدرة الله لا تخضع لمقاييس الخلق

حسب الإنسان أن يدرك أن مداركه وإن امتدت لا تعدو أن تكون محدودة بحدود طبيعته الحادثة وطاقاته القاصرة، وما علم الإنسان بهذا الوجود وأحواله وطبيعته إلا كنقطة ماء في خضم محيط لا تعرف له حدود، فأنى له أن يتطاول بفهمه الكليل وعقله القاصر وبصيرته الضيقة ليفسر كل شيء تفسيرا علميا كما يشاء، وإنما حسبه أن يدرك أن للكون مكونا وللتصاريف مصرِّفا أحاطت قدرته بكل شيء ووسع علمه ما كان وما هو كائن وما لا يكون، تنفذ مشيئته في كل شيء ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، تقاصرت العقول عن الإحاطة بحِكَمِه في أحكامه وأفعاله، له وحده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير.

وما إنكار الإنسان لشأن الله سبحانه في تصريف الكون – حسب مشيئته تصريفا لا يخضع لمقاييس الخلق ولا ينحصر في

نظام يعود إلى تجاربه وتفكيره – إلا تطاول على مقام الربوبية ومحاولة لسلب الألوهية أخص خصائصها وتعام عما يجري في الكون وعما جاء به الوحي. فكم يرى الإنسان بعينيه حقائق تدهش عقله وتطير بلبه تتجلى في شأن الله ﷻ في خلقه لا يجد لها تفسيرا ماديا، ولا يملك أن يفسرها إلا أنها أثر لمشيئة الله القاهرة، وآية على قدرته المحيطة بكل شيء، وحسب الإنسان أن يلتفت إلى خلقه من نطفة مهينة حقيرة لا تعدو أن تكون خلية بلغت في دقتها أنها لا تكاد تبصر، حتى بأشعة المجهر ثم لا تلبث أن تتطور طورا بعد طور حتى يكون منها بشر سوي، له خصائصه الروحية والجسدية، ومزاياه الحسية والمعنوية.

وأعجب ما في ذلك ما يكون من نفخ الروح فيه بكيفية يرتد دونها بصر العلم البشري خاسئا وهو حسير، إذ لا يملك أي أحد تفسيرا لهذا السر الغيبي وما يتبعه من تحول هذا الكائن البشري الناشئ إلى خلق آخر ينطوي على عجائب وغرائب لو تضافرت جهود البشر جميعاً منذ بداية الخلق وإلى أن يرث الله

الأرض ومن عليها على تفسيرها لوقفت دون الوصول إلى هذه الغاية بمراحل لا يعلمها إلا الله.

وحسبه أيضا ما يراه في تصريف هذا الوجود من أمور يكل عن تصورها العقل ويقف دون الوصول إلى غيب سرها الإدراك، ناهيك بهذا الرباط العجيب الذي يشد الأجرام الفلكية بعضها إلى بعض، وينظم حركاتها تنظيماً لو جمعت الطاقات العقلية المتفرقة في أمخاخ البشر منذ بداية الخلق وإلى نهاية الوجود في كائن واحد، فتكون منها جميعا عقل واحد لكان عاجزا عن تصوره، فضلا عن القدرة على التفكير فيه وتخيله واقعا قبل أن يقع.

أوليس في هذا كله ما يكفي شاهدا ودليلا على أن الله سبحانه مبدع هذا الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا تنتهي قدرته إلى حد ولا تغيى مشيئته بنهاية، فأنى للإنسان أن يتطاول بغروره القاتل وجهله المخزي إلى أن يدعي على الله أن

مشيئته مضبوطة بضوابط ومقيدة بسنن يدركها الإنسان فيتسنى له بسبب ذلك حصر المشيئة الربانية المطلقة في دائرتها المحدودة، ومحاكمة ما أخبر الله به في وحيه الأمين إليها؟!. كلا، وإنما هو نزق الطيش المردي وظلمة الجهل المضلة.

ليت شعري؛ أما أشفق هؤلاء على أنفسهم أن يقتحموا لجج بحر لا ساحل له ولا قعر، فيرتطموا بطوفانه؛ الذي لو ارتطم الوجود بموجة من أمواجه العاتية لكانت كافية لأن تأتي على أدناه وأقصاه فلا يبقى له أثر ولا خبر، فأين يا ترى هذه العقول التي يدعونها وهي لم تكف لتبصيرهم بجسامة الهول وعظم الخطر فيما أقدموا عليه فيحذروا من الاندفاع إلى هذه الهلكة التي يسوقون أنفسهم إليها سوقا وهم يتبارون في السباق إليها.

وقفة مع بعض أفكار العقلانيين

بما أن الباطل عرضة الإزهاق بكلمة الحق الصادعة وحجته الساطعة، فإن كشف عوارهم وتفنيد ضلالهم واجب محتوم على الأمة غيرة على عقيدتها وحفاظا على دينها وإخلاصا لربها سبحانه، وإن الله تعالى ليكرم بذلك من يوفقه من عباده للصدع بأمره، لذلك رأيت من الضرورة الانبراء للدفاع عما أخبر الله سبحانه في كتابه وبلغه رسوله الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم، بتجلية حجة الحق؛ التي لا تلبث أمامها شبهات الباطل أن تتبخر بوهجها كما يتبخر الضباب بوهج الشمس، فتنجلي للأبصار بضيائها الكشَّاف، فدونك أيها الحريص على الحقيقة، الغيور على الحق، ما يبصرك من العمى، ويهديك للهدى.

قصة يونس عليه السلام :

إن ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام ليس خرافة نسجتها أوهام أهل الكتاب كما زعموا، وإنما هو حقيقة جاء بها القرآن، فإن الله تعالى قال: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[(١)]، والالتقام إنما هو الابتلاع كما نصت عليه معاجم اللغة.

فقد قال إمام اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي: "لَقِمَ يَلْقَمُ لَقْماً، واللُّقْمةُ الاسم، واللَّقْمةُ: أكلها بمرة"[(٢)]، وقال ابن منظور في "اللسان": "الْتَقَمْت اللُّقْمةَ أَلْتَقِمُها الْتِقاماً إِذا ابْتَلَعْتها في مهْلة"[(٣)]، وفيه أيضا: "واللُّقْمة اسم لما يُهيِّئه الإِنسان للالتقام واللَّقْمةُ أَكلُها بمرّة"[(٤)].

(١) سورة الصافات الآية (١٤٢).

(٢) العين، ج٥ص١٧٣، دار ومكتبة الهلال، تحقيق د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي.

(٣) لسان العرب، ج١٢ص٥٤٦.

(٤) المرجع السابق.

وقال الجوهري في "الصحاح": "لَقمَ اللُّقْمَة ابْتَلَعَها وبابه فهم والْتَقَمَها مِثلُه. وتَلَقَّمَها ابْتَلَعَها في مَهْلة"[(١)]، ونحوه ما قاله الرازي في "مختاره"[(٢)]، وقال الأزهري في "التهذيب": "واللقمة: اسم لما يهيئه الإنسان للالتقام واللقمة: أكلها بمرة"[(٣)].

وقال ابن دريد في "الجمهرة": "ولَقِمَ الرجلُ يلقَم لَقْماً، إذا أكل"[(٤)].

وقال الفيروزأبادي في "القاموس" والزبيدي في شرحه "تاج العروس": "لقمه (كسمعه) لقما جذبه بفيه و (أكله سريعا والتقمه) التقاما (ابتلعه) في مهلة"[(٥)].

(١) الصحاح، ج٢ص١٤٦.

(٢) مختار الصحاح، ج١ص٢٥١.

(٣) تهذيب اللغة، ج٩ص١٤٨.

(٤) جهرة اللغة، ج٢ص٩٧٤.

(٥) تاج العروس، ج٣٣ص٤٣٠.

وقال أبو القاسم السعدي في كتاب الأفعال: "ولقم الطعام والشيء لقما ابتلعه"[1].

وقال أساتذة الأدب إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد النجار في "المعجم الوسيط": "التقم الشيء بلعه وفي التنزيل العزيز: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾"[2].

فأنت ترى أئمة اللغة –سواء المتقدمون منهم والمتوسطون والمتأخرون إلى عصرنا هذا– لم يختلفوا في أن التقم بمعنى ابتلع ويؤيده النص القرآني حيث قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3]، فإن من الظاهر بداهة أن لبثه في البطن إنما هو بعد وصوله إليه فلم ينقذه

(١) كتاب الأفعال، ج٣ص١٢٣.

(٢) المعجم الوسيط، ج٢ص٨٣٥.

(٣) سورة الصافات الآيات (١٤٣-١٤٤).

من ذلك إلا تسبيحه لله سبحانه وإنابته إليه ففي "العين": "اللبث المكث".

وفي "التهذيب": "قال الليث: اللبث المكث"[1]، وفي "لسان العرب": "ابن سيده: لبث بالمكان يلبث لبثا ولبثا ولبثانا ولباثة ولبيثة، وألبثته أنا، ولبثته تلبيثا، وتلبث: أقام"[2]، وهذا ما اتفق عليه اللغويون فلا داعي إلى الإسهاب بنقل نصوصهم، وأنت ترى أن الآية الكريمة ناطت بعدم تسبيحه –لو لم يسبح– لبثه في بطن الحوت لا وصوله إليه، وهو يعني أنه كان واصلا إليه إبان تسبيحه فنجاه الله تعالى منه، وهو يؤكد ما أجمع عليه المفسرون واللغويون، بل جميع الأمة من كون الالتقام إنما هو بمعنى الابتلاع.

(١) تهذيب اللغة، ج١٥ص٦٨.

(٢) لسان العرب، ج٢ص١٨٣.

أما ما يردده أولئك من المجادلات العقيمة بأن الالتقام يطلق على غير الابتلاع كما في قولهم: "التقم الطفل ثدي أمه في الرضاع" مع كونه لا يبتلعه فهو من دلائل جهلهم وغبائهم، إذ الطفل لا يولج الثدي كله في فيه وإنما يولج منه حلمته فحسب، وما هي إلا جزء يسير منه، فبناء على تفسيرهم التقام الحوت ليونس بإطباق فكيه عليه يلزمهم أن يكون معنى التقام الثدي دخول الثدي جميعا بين ماضغي الطفل وإطباقهما عليه، وأنى لهم بذلك وفوه لا يسعه، وإنما هذا من باب المجاز الإرسالي؛ الذي يطلق فيه المحل على الحال، فبما أنه يبتلع ما في الثدي من اللبن عبر عن ابتلاعه اللبن بالتقامه الثدي، وهذا نحو قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

فإن ما ينزل بالأرض إنما هو الماء الآتي من جهة السماء وليس عين السماء، كما أن الرعي إنما هو لما ينبت من الماء في الأرض من الكلأ، وليس للماء ولا للسماء، وإنما كان التعبير بطريق التجوّز، وقد عد البلاغيون البيت شاهدا في أحد نوعي

الاستخدام وهو أن يذكر اسم صريح مرادا به غيره بطريق المجاز ثم يعاد إليه ضمير يراد به غير ما دل عليه الاسم في حقيقة معناه ولا فيما استعمل فيه مجازا وإنما يقصد به معنى آخر تجوزا عن المعنى الذي استعمل فيه أولا، فهو من بناء المجاز على المجاز، ولئن كان هذا من أساليب البلاغة المألوفة عند العرب فأي إشكال في قولهم التقم الطفل الثدي مع أن ما يلتقمه في الحقيقة إنما هو اللبن الذي يمصه منه، وأي حجة في ذلك لما يزعمونه.

ومما يؤكد أن الالتقام بمعنى الابتلاع تسمية العرب الطريق باللقم؛ لأنه يلتقم السابلة كما أنهم سموه الصراط – بالسين والصاد – لأنه يسترطها أي يبتلعها والسين هي الأصل في ذلك وتبدل صادا لقربها من الطاء كما قال المحقق الخليلي – رحمه الله – في "مقاليد التصريف":

والسين قبل بعض "خط غق" جعل ... صادا إذا بأربع لم ينفصل

يعني أن السين يجوز إبدالها صادا إذا كان بعدها أحد الحروف الأربعة التي يجمعها قوله: "خط غق" وهي الخاء والطاء والغين والقاف، مع كون الحروف الفاصلة بينهما أقل من أربعة، وأنت ترى أن أصل تسمية الطريق لقما أو صراطا واحد، وهو كونه كأنه لسعته يلتهم الماشي فيه بين أحشائه.

أما ردهم هذا بكونه مذكورا في الإنجيل فبنوا عليه أنه من أساطير أهل الكتاب فهو عجيب لأن ذلك يقتضي رد كل ما هو في الإنجيل وإن كان من أصول الإيمان ومسلمات الدين التي يقوم عليها صرحه فإن في الإنجيل كثيرا من النصوص التي لا تقبل الجدل في كونها صحيحة إذ مع ما فيه من ضلالات التحريف لا تزال في تضاعيفه نصوص دالة على توحيد الله تعالى وأخرى دالة على نبوة نبينا محمد ﷺ وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنهم ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

فهل وجدان ذلك في تضاعيف نصوصه قاض ببطلانه ومسوغ للكفر به وزعم أنه من أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حتى يعد التوحيد شركا والإيمان كفرا –والعياذ بالله– ؟!.

على أن طرحهم لرأيهم في هذه القضية – لو سلم جواز الرأي فيها – لا يترتب عليه شيء من الأعمال، فماذا عسى أن تجني الأمة منه إلا الشقاق والتفرق لغير داع، على أنه من الظاهر بداهة أن منشأ طرحهم له عدم إيمانهم بأن الله قادر على أن يسلم عبده يونس عليه السلام من الأذى مع ابتلاع الحوت له وبقائه في جوفه إلى حين من الوقت، والمؤمن يدرك بإيمانه أن الله تعالى على كل شيء قدير، فكون بطن الحوت منجاة ليونس ليس بأعجب

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٨).

وأغرب من نجاة إبراهيم عليه السلام من نار نمروذ المؤججة؛ التي لم يكونوا في شك أنها تأتي عليه وقد جعلها الله عليه بردا وسلاما.

وثَمَّ الكثير من خوارق العادات التي وقعت –بأمر الله تعالى– للأنبياء وغيرهم مما هو مذكور في القرآن بنص صريح لا يقبل التأويل ولا الجدل فتشكيكهم في هذا يعني تشكيكا في جميع هذه الغيبيات التي أخبر الله بها، وذلك يؤدي قطعا إلى التشكيك في القرآن كله، بل إلى التشكيك في خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان من ماء مهين، فإن ذلك كله أشد في الغرابة وأبلغ في الإعجاز من تنجية يونس عليه السلام من بطن الحوت.

وسوف أتعرض – بعون الله وتوفيقه – لذكر هذه الخوارق في موضعها وشرحها بما يشفي الصدور، ولعمر الحق إن كان هَمُّ هؤلاء التشكيك في قدرته سبحانه على إنشاء أمر بغير سببه أو تعطيل الأسباب الطبيعية حتى لا تفضي إلى مسبباتها؛ فإنهم ولا ريب إنما يشككون بدجلهم وضلالهم في

ألوهية الله تعالى وربوبيته، بل في وجوده لأن الكون لا يعدو – عندهم – أن يكون كالجهاز الآلي تحركه الطاقة التي فيه من غير تحريك من أحد رأي العين، فهو غير مفتقر إلى إله مدبر يصرفه بقدرته كيف يشاء، وبموجب هذا الاعتقاد لا يبقى بينهم وبين ملاحدة الشيوعية وغيرهم أي فرق في الفكر.

وإن زعموا أنهم لا يهدفون من وراء هذا الطرح إلى ذلك، فليت شعري ما هي فائدة طرحهم إذن؟ مع أن جميع الأمة على اختلاف مذاهبها الفقهية والعقدية مجمعة على هذا فضلا عن نصاعة دلالة النص القرآني عليه، فما الداعي إذاً إلى مكابرة النص القرآني وإنكار دلالته وحمله على ما لا يدل عليه لفظه ولم يقله أحد من علماء الأمة، وماذا يُخشى على الأمة في عقيدتها أو عبادتها أو سائر أعمالها إن اعتقدت أن يونس عليه السلام ابتلعه الحوت في بطنه وإنما نجا بأمر الله سبحانه من الهلكة بطريقة تعجز عن تصورها مدارك البشر، أوليس هذا الاعتقاد هو الموافق لاعتقادنا أن الله سبحانه على كل شيء قدير لا يعجزه

شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يعمق إيماننا به، ويقوي تعلقنا به في جميع أمورنا بحيث لا نغتر في أمر بقدرتنا ولا تدبيرنا، وإنما نعول في كل شيء عليه، ونرجع في كل أمر إليه كما أمرنا، وكم من آية أخبرنا الله بها ليتأصل في نفوسنا هذا الاعتقاد الحق، ولنتحرر به من التعلق بغيره سبحانه.

قصة الذي عنده علم من الكتاب:

أما نقل عرش بلقيس من حيث كان والإتيان به إلى سليمان عليه السلام من قبل أن يرتد إليه طرفه حسب وعد الذي عنده علم من الكتاب، فإن دلالة النص القرآني عليه واضحة لا غموض فيها، ومحاولة لي ذلك النص ليتفق مع هوى أولئك إنما هي لا تعدو أن تكون تشكيكا في قدرة الله سبحانه؛ الذي يختص من يشاء من عباده بما يشاء من هباته، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات.

على أن الحق ﷻ عندما ذكر هذه القصة أسند هذا القول إلى الذي عنده علم من الكتاب، ونحن لا ندري ما ذلك الكتاب ولا نوع العلم الذي احتواه، ولكن نؤمن بأن الله سبحانه جعل ما في ذلك الكتاب من علم سببا لهذا التمكين، فإن الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علة لذلك الحكم، ومن المعلوم أن اسم الموصول وصلته في حكم المشتق، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾(١)، فإن عدم رجائهم لقاء الله تعالى هو علة هذا القول، وما كان معه من عتو واستكبار، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾(٢)، فإن عدم علمهم هو علة هذا القول.

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢١).

(٢) سورة البقرة الآية (١١٨).

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ﴾[١]، فإن قتلهم أولادهم سفها بغير علم وتحريمهم ما رزقهم الله علة لخسرانهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[٢].

فإن منشأ ما كان لهؤلاء وهؤلاء إنما هو ما احتواه اسم الموصول وصلته من وصفهم، ولذلك في القرآن الكريم مئات من الشواهد، وهذا يفيد ولا ريب ما ذكرته من أن ما أوتيه من علم الكتاب هو سبب ذلك التمكين الذي مكنه، فجاء بعرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه، ومما يدل عليه قوله تعالى على أثر ذلك: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٠).

(٢) سورة محمد الآية (١-٢).

رَبِّي﴾[١]، فإن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب كما هو معلوم، ومعناه أن سليمان عليه السلام رأى العرش بين يديه فوراً قبل أن يرتد طرفه.

ومع الإيمان بقدرة الله المطلقة لا يبقى في نفس الإنسان أي ارتياب في هذا ولو لم يكن ذلك وفق نواميس الطبيعة المعهودة عندنا، فإن حقائق الغيوب التي أخبر الله بها جلها خارجة عن هذه النواميس المألوفة وقدرة فاطر السماوات والأرض واسعة ومدارك الإنسان محدودة، فأنى تتسع لما اتسعت له قدرة منشئ الوجود.

على أن هؤلاء لا يماحكون ولا يشككون عندما يسند مثل هذا التصرف إلى أحد وفق معطيات العلم الحديث، فالذي جادل بالباطل ليشكك في هذه الحقيقة التي أخبر بها القرآن ردد غير مرة أنه هنالك محاولة من قبل بعض رادة التجارب العلمية

(١) سورة النمل الآية (٤٠).

لتجميد الضوء وأن ذلك يمكِّنهم من نقل الأجسام بسرعة مذهلة كما تيسر لهم نقل الأصوات والرسائل عبر الوسائل المعهودة.

فليت شعري؛ كيف يؤمن الإنسان العاقل بأن هذا أمر يمكن للمخلوق أن يحققه بوسائله؛ التي هي كيفما كانت تعد قاصرة محدودة، ولا يمكن أن يتحقق بتسخير الله تعالى ذلك لمن يشاء فضلا منه سبحانه ومنا، فاعجب لعقل يصدق ما يقال عن قدرات المخلوق؛ الذي حرم من هداية الإيمان ولا يصدق ما يقال عن قدرة منشئ الوجود؛ الذي يقول للشيء كن فيكون؟!.

خوارق العادات:

اعلم أن ما يطلق عليه وصف خوارق العادات لا يعدو أن يكون خرقه لها حسب ما هو مألوف للإنسان من خلال معايشته للأحداث وألفته لمجاري الأمور، وإلا فإن أي خارقة منها ليست بأعجب وأغرب مما هو مشاهد مألوف ومسلم من

جميع ذوي العقول، فخلق السماوات والأرض وتنظيم حركاتهما وتسخير ما فيهما وتناسق محتوياتهما وتواؤم طبائعهما، كل ذلك أعظم عجبا من كل ما يوصف بخرق العادات.

كما أن بداية خلق الإنسان من تراب، وجعله نطفة مهينة هي أدق من كل ما تتسلط عليه حواس الإنسان، واشتمال تلك النطفة على جميع الخصائص البشرية العامة، والخصائص الأسرية الخاصة؛ التي تتنقل متسلسلة في أجيالها بالوراثة، كل ذلك أعجب وأغرب وأحرى بأن يستوقف كل ذي لب، وهذا يذهب بالاستغراب من الأمور التي تجري على غير اطراد النواميس المألوفة للبشر.

على أن ما يعد خارقا في وقت يعد أمرا عادياً مألوفاً في وقت آخر، وحسبك من هذا ما أصبح مألوفا اليوم من أمور لم يكن يصدقها العقل ولا يستسيغها الفهم في القرون الخالية، فهب أن أحدا أخبر قبل قرن من الزمن أن تطور الأوضاع

البشرية بما يطرأ من اكتشافات وتجارب علمية سيصل بالإنسان إلى أن يمكنه أن يتحدث من خلال جهاز صغير في يده إلى أي أحد كما يشاء في أي قارة من قارات الدنيا، أو أنه سيكون بإمكانه أن يتحدث إلى الناس فيسمعوا حديثه في جميع أرجاء الأرض ويروا صورته عبر الشاشات مشتملة على جميع حركاته، أتراه يصدق ذلك ويستسيغه عقله؟ كلا؛ وإنما سيبادر إلى التكذيب وتسفيه من يقول ذلك.

ومثله لو أخبر مخبر آنذاك أن بإمكان إنسان المستقبل أن يصبح بالجزيرة العربية ويمسي في الصين أو في أوروبا، فإنه يستحيل أن يصدقه مصدق، ولكن ذلك كله أصبح حقيقة واقعة لا يتمارى فيها اثنان، وهل ترى أن إنسان هذا العصر وصل إلى ما وصل إليه من ذلك بمجرد طاقاته وإمكاناته، أو أن الله ﷻ هو الذي أوصله إلى ذلك، وهيأ له الأسباب بما منحه من وسائل اكتشاف طبيعة الكون وتسخيرها له؟.

لا ريب أن العاقل يرد ذلك كله إلى إرادة الله وقدرته وحكمته في تصريف الأمور، فلو شاء الله سبحانه لحجب هذه الوسائل عن أبناء العصر كما حجبها عمن قبلهم، مع أن من المتقدمين من كان أنور بصيرة وأقوى فطنة وأشد قوة وأكثر اجتهادا، لكن تلك هي قسمة الله سبحانه التي تعود إلى حكمته ﷻ، والمؤمن يقطع أن الله سبحانه الذي جعل هذه الأمور مألوفة اليوم قادر على أن يختص بها أو ببعضها أو بما هو أعظم منها في القرون الخالية من يشاء من عباده، ولو كان ذلك متعذرا على الإطلاق حسب مقاييس البشر في ذلك العصر.

وقد دل القرآن الكريم على خروج كثير من الأمور عن السنن المألوفة عند البشر، لذلك كانت خوارق للعادات، وذلك بتصريف الله سبحانه وإرادته أن يجري هذه الخوارق على يد من يشاء من عباده، فكم من آية في كتاب الله دلت على حقائق وقعت يقف العلم البشري - رغم تطوره وتقدمه المذهل - عاجزا عن تفسيرها، وإنما يستوعبها إيمان المؤمن؛ الذي يرد كل

شيء إلى سعة قدرته تعالى ونفاذ مشيئته وبالغ حكمته، ناهيك ما أخبر به تعالى من قصة زكريا عليه السلام؛ الذي بشر بمولود بعد أن بلغ من الكبر عتيا، وكانت امرأته عاقرا.

ولما عجب من هذا الأمر وقال مستفهما: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ رد الله عليه بقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[1]، وكذلك مريم عليها السلام عندما بشرت بعيسى المسيح وهي لم تكن ذات بعل ولم يمسها أحد، فإن الله سبحانه حكى في كتابه تبشير الملائكة لها بذلك حيث قال:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

(١) سورة آل عمران الآية (٤٠).

إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

فكم من عجيبة خارقة للعادة في هذه البشارة، منها خلق المسيح عليه السلام بكلمة من الله من غير أن تتدخل أسباب مألوفة للبشر، ومنها تكليمه للناس في المهد، وما يجريه الله تعالى على يديه من عجائب لا يكتنهها العقل ولا يتصورها العلم؛ كخلقه من الطين كهيئة الطير فإذا نفخ فيه كان طيرا بإذن الله وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، وإنبائه لبني إسرائيل بما يأكلون ما ويدخرون في بيوتهم، فبالله عليكم أي تفسير

(١) سورة آل عمران الآية (٤٥-٤٩).

علمي يرقى إلى درجات هذه العجائب حتى يفسرها ما عدا التفسير الإيماني وهو رد ذلك كله إلى مشيئة الله وقدرته، وهو ما تضمنه ما أجيب به زكريا في قوله: ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وما أجيبت به مريم في قوله :﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

على أن في كلا الجوابين ما يقضي بأن هذه العجائب لا تدخل في حدود الحصر عند البشر؛ لأنها عائدة إلى مشيئة الله النافذة، وكائنة بخلقه وفعله اللذين لا ينفك عنهما الوجود، كيف وقد كان التعبير عن ذلك بصيغة المضارعة الدالة على التجدد والحدوث باستمرار، ففيما أجيب به زكريا ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي كهذا الفعل العجيب يكون فعل الله لما يشاء، وكذلك فيما أجيبت به مريم: ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي كهذا الخلق الغريب الذي لم تتصوريه يخلق الله ما يشاء.

فمعنى ذلك أن هذا الأمر في حقيقته إنما هو سنة من سنة الله في أفعاله وخلقه، وإن خفيت على الناس لقصور أفهامهم وعدم اطلاعهم على أسرار غيبه تعالى.

وإن من المفارقات الغريبة أن يدعي مدع أنه يؤمن بهذه الحقائق التي دلت عليها هذه النصوص، وهو مع ذلك يجادل في قصة يونس عليه السلام وفي قصة الذي عنده علم من الكتاب، غير مستسيغ عقله أن ينجو يونس من الهلكة وقد التهمه الحوت في بطنه وأن يأتي الذي عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس إلى سليمان حقيقة قبل أن يرتد إليه طرفه!.

فبالله عليكم أي الأمرين أعجب أن تكون قصة يونس وقصة الذي عنده علم من الكتاب كما دل عليه صريح النص القرآني؛ الذي أنكره هؤلاء المكذبون، أو قصة المسيح عليه السلام في إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله؟! فإن كان هؤلاء لا

يؤمنون إلا بما كان له تفسير علمي، فأي تفسير لهذا المذكور في قصة عيسى كيف يقوى على رد الميت إلى الحياة بعد مفارقته لها، وكيف يمكنه أن يحول الجماد المصنوع من الطين على هيئة الطير إلى طير حقيقي بمجرد النفخ فيه؟!.

أرأيتم أن لو جادل هؤلاء مجادل من الملاحدة، وقال لهم كيف تزعمون صدق ما ذكر من قصة المسيح عليه السلام مع ما فيها من الغرابة وعجز العلم عن تفسيرها في حين أنكم تنكرون إمكان حياة يونس بعد ابتلاع الحوت له كما تنكرون إمكان مجيء الذي عنده علم من الكتاب إلى سليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، فإن منشأ شككم فيما تضمنته قصتا يونس والذي عنده علم الكتاب هو منشأ شكنا في قصة المسيح، فبأي حجة تثبتونها مع كونها أبلغ في الغرابة وأكثر خروجا عن النواميس الكونية المألوفة؟، فبالله عليكم كيف يمكنهم التخلص من إلزامه وإثبات ما ينكره إن كانوا حقاً مباينين له في

إلحاده ومؤمنين بما لم يؤمن به مما أخبر الله به عن المسيح عليه السلام؟!.

فإن زعموا عنادا واستكبارا – كما هو ديدنهم – أن بإمكان العلم البشري أن يفسر سر ما كان من المسيح عليه السلام من إحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وخلقه من الطين كهيئة الطير وكونه طيرا بنفخه فيه فإنني أتحداهم بأن يصنعوا هم ذلك حتى نجد آثار صنعهم هذا كما حصل للمسيح عليه السلام ، ولا مانع من أن يستظهروا بأوليائهم، وأن يحشدوا كل ما عندهم من وسائل وطاقات تمكنهم من تحقيق ذلك

ليت شعري؛ أليس فيما ذهبوا إليه – على أقل تقدير – فتح لباب الشك في أخبار الله تعالى إن كانت هذه الأخبار – كما زعموا – لا تستساغ إلا إن كان لها تفسير من العلم وإنني لأتحداهم وأكرر التحدي لهم بأن يأتوا بتفسير علمي لنقل صورة الطير من الطين إلى طير حقيقي، على أن الله سبحانه أسند

هذا الفعل إلى عبده المسيح عليه السلام وهو لا شك في إنسانيته وعبوديته لله تعالى، وقد قال الله تعالى ممتنا في ذلك عليه به وبغيره مما آتاه: ﴿وإذ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[1]، بينما أسند تنجية يونس عليه السلام إلى نفسه، فبالله عليكم أليس ما أسنده الله تعالى إلى نفسه أولى بانتفاء العجب عنه، مما أسنده إلى عبد من عباده، وإن كان ذلك بإذن منه، وبإقدار له علي فعله، إلا أنه يبقى ما كان من شأن الله سبحانه وحده أولى بأن يسلم له، إذ لا عجب في أن تجري الأمور في مجراها وفق مشيئة الله تعالى النافذة، كما صور ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

(١) سورة المائدة الآية (١١٠).

(٢) سورة النحل الآية (٤٠).

تُرْجَعُونَ﴾[1]، وهذا لا يعني بحال من الأحوال التشكيك فيما أخبر الله ﷻ به عن المسيح من فعل ذلك، وإنما هو تعجب وتعجيب من أحوال هؤلاء الذي لا يفكرون فيما تفوه به لهواتهم وتفكر به عقولهم المأفونة.

ومثل هذا ما أخبر الله ﷻ به من قصة إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، فإن المحكي هنا إن لم يكن خارجا عن سنن الحياة المألوفة عند البشر فليس يصح في الأذهان شيء ولئن زعموا ذلك فإني أتحداهم أن يصنعوا مثله فيذبحوا عددا من الطيور ويخلطوا بين لحومهن وعظامهن

(١) سورة يس الآية (٨١-٨٢).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٠).

ويوزعوهن على الجبال ويدعوهن فيأتينهم سعياً كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام وكذلك ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾(١).

وفي قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، فماذا عسى أن يقال في هذا النص الصريح في قصة هذا الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وقد أراه الله كيف ينشز العظام ثم

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٣).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٩).

العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع

يكسوها لحماً، كما أراه الله تعالى طعامه وشرابه لم يتسنه مع مرور هذا الزمن الطويل عليه فهل يعد ذلك من مألوفات البشر، وماذا عسى أن يقال فيه من التفسير العلمي، الذي يحتكمون إليه في تصديقهم وتكذيبهم؟.

وما أعجب قصة أصحاب الكهف عند من أمعن وتدبر، فقد ظلوا ثلاثمائة سنة و تسع سنوات لا يأكلون ولا يشربون، ولم تبل أجسامهم، ولم تتغير طبيعتهم، فقاموا كأنما لبثوا يوما أو بعض يوم، وهم بين أمرين إما أن يكونوا قبضت أرواحهم فكانوا في عداد الموتى، وذلك مما يترتب عليه عادة بلى الأجسام، وعدم العودة إلى الحياة الدنيا، وإما أن يكونوا نياما وقد بقيت أرواحهم في أجسادهم فلم تفارقها الحياة، وهذا أعجب؛ فإن عادة الأجسام أن لا تبقى الحياة فيها بدون غذاء فكيف لبثوا أكثر من ثلاثمائة عام وهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يفرزون من الفضلات الطبيعية ما اعتادت الأجسام إفرازه،

فكيف ظلوا مع ذلك أحياء طوال هذه المدة؟! أليس ذلك من خرق العادات وخروجاً عن السنن الكونية المألوفة؟.

فإن ركبوا متن العناد وكابروا العقل والحس زاعمين أن ليس في ذلك خروج قط عن العادات والسنن طالبناهم أن يرونا حادثة بعينها شبيهة بهذه القصة، أو ينام بعضهم سنين طويلة من غير تغذية لجسمه بشيء مع عدم مفارقة الحياة له.

ولئن عطفنا العنان مرة أخرى إلى قصة سليمان عليه السلام المذكورة في سورة النمل وجدنا ما هو أشد عجبا وأعظم غرابة، وقد دل عليه النص الصريح في قوله تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ

إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1].

فانظر ما ذكره الله أولا من تعليم سليمان منطق الطير وأن جنوده الذين حشروا له كانوا من الجن والأنس والطير، ومعنى ذلك أنه يتصرف فيهم أمرا ونهيا، ويسلطهم أو من يشاء منهم على من يشاقه ويعانده، فهل ألف مثل ذلك في سائر حكام الدنيا، وكذلك ما حكاه الله سبحانه من إدراكه لكلام النمل، وأن نملة دعت سائر النمل إلى دخول مساكنهم لئلا يحطمهم سليمان وجنوده، ومعنى ذلك أن النمل كان على علم بأمره وخبرة بشأنه.

وليت شعري؛ بأي سمع كان إدراكه لهذا الكلام وبأي فهم كان تمييزه لمعانيه وتصوره لمضامينه؟ فهب أن هذا لم يذكر في الكتاب العزيز، وإنما حدث به الرسول ﷺ فتناقله الرواة عنه

(١) سورة النمل الآية (١٦-٣١).

كيف تراهم كانوا سيتهكمون بهذه الرواية ورواتها، وسيجعلون من هذا الكلام سهما مسموما يطعنون به السنة النبوية في الصميم؟!.

ثم انظر كيف وعى الهدهد ما كان من قصة المرأة التي أوتيت من كل شيء، وأنها كانت تسجد - ومعها قومها - للشمس من دون الله، وقد أفضى بهذا كله إلى سليمان عليه السلام بلسان مبين، وأراد سليمان امتحانه فحمله رسالة إلى تلك المرأة ليلقيها إليها، أوليس في هذا كله ما يثبت أن الأمور تخرج عن طبائعها المألوفة وسننها المعهودة عندما يريد الله ذلك؟.

فماذا عسى أن يقول هؤلاء في هذه الأخبار التي حوتها هذه النصوص أيردونها كما يقتضيه منهجهم في القبول والرفض، فيكونون قد جاهروا بكفرهم وباحوا بسريرتهم؛ التي يحرصون على كتمها ؟! أو يحملونها على محامل تتفق مع ذلك المنهج الذي اختطوه لأنفسهم، وهو ما تأباه اللغة ولا يجدون

سبيلا إلى تطويعها، حتى تتواءم معه؟! أو يقبلونها ويعترفون بصحتها وثبوتها فتكون أكبر حجة عليهم في نقض ما أبرموه وهدم ما شادوه؟!.

إن كل نتيجة من هذه النتائج مر مذاقها عليهم، عسرة إساغتها على حلوقهم، صعب هضمها على أمعائهم، فماذا عسى أن يقولوا فيها ليتخلصوا من إحاطتها بهم وأخذها بتلابيبهم؟ وكم من نصوص في كتاب الله المبين مؤكدة لما في هذه من أنباء، كفرق البحر لموسى ومن معه لتنجيتهم من فرعون وآله، وإطباقه على فرعون وجنده، فكان لهذا الحدث العظيم عاقبتان متضادتان تنجية قوم وإهلاك آخرين.

ومثله ما كان من أمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر فلا يلبث أن تنفجر منه اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل، لكل قوم مشربهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، وإظلال الغمام لهم وهم في التيه، على أن النصوص الدالة على ذلك كله تستعصي على التأويل، فمهما قال أصحاب التفسير

المادي في فلق البحر لموسى، عندما ضربه بعصاه، من أن البحر في ذلك الوقت كان في وقت جزر؛ لذلك نجوا بخوض رقارقه، وأن ضربه بعصاه كناية عن خوضه وهو متكئ على تلك العصا، وأنه بعد اجتيازهم له ثابت ثوائبه فعاد كما كان في مده فأطبق على فرعون وجنده، فإن النصوص القرآنية تأبى قبول هذا التأويل البعيد الفاسد، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٢]، فحسبك من هذين النصين الكريمين إبطالا لهذا التأويل؛ الذي لا ينشأ إلا عن اضطراب في التفكير، وزلزال في الاعتقاد، فآية طه صريحة

---

(١) سورة طه الآية (٧٧).

(٢) سورة الشعراء الآية (٦٣).

في أن طريقهم في البحر كان يبسا، وهو يتنافى مع زعم أن ماء البحر كان رقارق عندما اجتازوه، وكذلك آية الشعراء هي صريحة في أن ماء البحر انحاز إلى جانبين فكان كل جانب منهما كالطود العظيم، وكان اجتياز موسى ومن معه فيما بينهما أشبه بمرورهم بواد عميق بين طودين شامخين أشمين.

على أن هذا الأمر ربط بضرب موسى بعصاه البحر فكان هو السبب في تحقيقه بما أودع الله في تلك العصا من سر غيبي، وهذا مما يظهر لكل من أمعن نظره في قوله تعالى: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ فإن الفاء تربط ما بعدها بما قبلها برباط السببية، وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان، فلا داعي إلى الإطالة بذكر شواهده من القرآن أو من كلام العرب، ومثل ذلك ضرب موسى عليه السلام للحجر، فإنه كان السبب في انفجار اثنتي عشرة عينا منه كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

على أن هذا الحجر لا يخلو إما أن يكون حجرا بعينه كما قيل بأنهم كانوا ينقلونه معهم في تنقلاتهم عندما ظلوا يتيهون في الأرض، وغرابة ذلك لا تخفى على لبيب فأنى لحجر واحد أن يحتوي على اثنتي عشرة عينا ترتوي منها الألوف المؤلفة من البشر، ويقضون منها مأربهم من الماء، وإما أن يكون يتسنى لهم ذلك بضرب أي حجر كان، وهو لا يقل غرابة عن الأول.

وكذلك قصة أمر بني إسرائيل بذبح بقرة، وما كان فيها من تعنتهم في الاستفسار عن جنس تلك البقرة ووصفها وما تبع ذلك من بيان الحكمة في هذا الأمر وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا

(١) سورة البقرة الآية (٦٠).

اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

فإن ضرب ميت ببعض من بقرة مذبوحة لم يعهد أن تكون حياته به حتى يتمكن من الإخبار عن قاتله، وما قيل من أنَّ هذه حياة معنوية تتمثل في عدم إهدار دمه مردودٌ بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي كهذا الإحياء في غرابته وما يشتمل عليه من العجائب المحيرة للعقول يكون إحياء الله ﷻ الموتى يوم القيامة، فأنى يصح ذلك مع انتهاج ذلك التأويل البعيد؟!.

الرد على القول: ((الأخذ بالقطعي فقط))

لا ريب أنهم قد يقولون إننا لا ننكر ما دلت عليه هذه النصوص القاطعة ثبوتا ومعنى، ولكننا ننكر ما كان دون ذلك مما كان دليله غير قطعي متنا أو دلالة.

(١) سورة البقرة الآية (٧٢-٧٣).

وهذا الزعم مردود, فإنهم أنكروا أصل الخوارق ولذلك بالغوا في تأويل أدلتها بما يتفق مع هواهم, على أنه يكفي في ثبوت أصلها ما دل على هذا الثبوت من الأدلة القاطعة, وبين الثابت قطعا والمنفي قطعا مسافة هي مسافة الظن أو الشك, فليس لإنسان أن ينكر ما لم يكن ثابتا بالقطع, ولئن كان الإثبات يتوقف على دليل قطعي فإن النفي أولى بأن يتوقف عليه, ولذلك كانت شهادته على النفي فيها اجتراء فمن ثم سموها شهادة التهاتر, والعاقل يأخذ الأشياء بأدلتها ويتثبت في قبوله ورفضه وإثباته ونفيه، عملا بقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1].

والإنسان كيف ما كان لا يمكنه أن يحيط بحقائق الأشياء علما حتى ينفي كل ما لم يحط به علمه، فماذا عسى أن

(١) سورة الإسراء الآية (٣٦).

يكون مبلغه من العلم مع أن الله ﷻ خاطب أكثر البشر علما، وأثقبهم فهما، وأعمقهم فكرا، وأنورهم بصيرة، وأوفرهم عقلا، بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١)، أفيتطاول مع هذا إنسان عادي على إنكار كل ما لم يقع في دائرة معلوماته، وتحت طائلة إدراكه وفهمه، وقد أطبق سلفنا الصالح على أن الأمور ثلاثة: "أمر بان لك رشده فاتبعه، وأمر بان لك غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى الله".

ولئن كان كل نبأ لم ينص عليه بصريح العبارة في القرآن الكريم هو كذباً باطلاً، كان معظم ما في الوجود كذبا باطلا، فإن الله سبحانه لم يخبر عن جميع الصالحين بأعيانهم وأسمائهم في القرآن، كما أنه لم يخبر عن جميع المفسدين من الجبارين والفاسقين والمبطلين بأعيانهم وأسمائهم أيضا، وهذا يقتضي - بناء على تلك القاعدة الفاسدة التي بنوا عليها تصديقهم وتكذيبهم - أن يكذبوا بكل هؤلاء إن لم يذكروا في القرآن، فلا يصدقوا بأنباء

(١) سورة الإسراء الآية (٨٥).

الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ولا من جاء من بعدهم من الهداة المهتدين.

وكذلك أضدادهم من الأكاسرة والقياصرة وأئمة الكفر والضلال؛ الذين عاثوا في الأرض فسادا وساموا أهلها الخسف ونشروا بينهم الفساد، ومن ذلك أن لا يصدقوا بغزو التتار لأمة الإسلام، وما كان بعده من الاستعمار الأوروبي وما تبعه من تبعاته المشئومة، فإن أي شيء من ذلك لم يأت به نص قرآني صريح.

بل ذلك يقتضي إنكار آبائهم وأمهاتهم وإنكار أنفسهم لأنهم أيضا لم ينص عليهم في القرآن، بل إنكار جميع الاكتشافات العلمية والحقائق الكونية التي لم ينص القرآن على أعيانها وإن دل عليها في مجملها، لأن دلالته الإجمالية أو غير القطعية لا قيمة لها عند هؤلاء، وهل سمعتم أيها الناس بسفسطة أبلغ من هذه، أو تعام عن الحقيقة أعظم من هذا التعامي؟!.

وواعجبا من هذا الفكر الذي يرمي بصاحبه في هذه المتاهات السحيقة، وهذه البحور المتلاطمة بالضلال، ولو فكروا قليلا لربأوا بأنفسهم عن النزول في هذه الدركات المتدنية من السفسطائية؛ التي تكاد البهائم العجماء تنكروها ولا ترضاها لأنفسها.

على أن هؤلاء جاءوا شيئا إداً في مكابراتهم هذه وإصرارهم على العناد، عندما حاولوا أن يؤولوا الأخبار تأويلا عجيباً كتأويلهم ما رواه الربيع عن أبي عبيدة: "عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك قال: حان وقت الصلاة فالتمس الناس وضوءاً فلم يجدوه ، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في الإناء فأمر الناس أن يتوضؤوا. قال أنس: فرأيت الماء ينبع تحت أصابع النبي ﷺ فتوضؤوا إلى آخرهم"، إذ كان من زعمهم أن المراد بنبع الماء من تحت أصابعه ﷺ إرشاد الناس بأن يقتصدوا في استعمال الماء في وضوئهم!!.

وقد قلت لمن ذكر هذا التأويل في كتابه: "أنا آتيك بماء في إناء يكفي لوضوء أحد من الناس فوزعه على المتوضئين مرشدا إياهم أن يقتصدوا في استعماله حتى يكفي مئات من المتوضئين لإسباغ وضوئهم بالطريقة التي تختارها لهم".

هكذا بلغت بهم اللجاجة في تحميل الألفاظ ما لا تتحمله من المعاني، وإلا فما الذي يدعوهم إلى هذا التأويل السخيف مع ما يقرؤونه في كتاب الله مما هو أعجب من هذا، كتفجير اثنتي عشرة عينا من حجر بضربه بعصا من موسى عليه السلام .

سنن الله التي لا تتبدل:

لقد حاول هؤلاء في مجادلاتهم أن يوهموا الناس أنهم يستندون فيما عولوا عليه على ما دل عليه القرآن من أن لله سننا لا تتبدل، وعدوا ما هو خارق للعادة خارجاً عن سنن الله تعالى المألوفة، فلذلك أنكروا الخوارق وأنت إذا رجعت إلى القرآن

الكريم أدركت ببصيرتك أن تصريف الله تعالى للوجود لا ينضبط بسنن خاصة يحصيها البشر إدراكا وعلما، فكم من قضية ذكرها القرآن لم تجر وفق السنن الكونية المألوفة للبشر ولذلك استغربها من استغربها؛ كما قالت امرأة إبراهيم: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾[1] وذكر الله عنها أنها: ﴿صَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[2] وكذلك قول مريم عليها السلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[3] فإن ذلك كله غير جار وفق السنن المعهودة.

وكان الجواب على هذه التساؤلات قاطعا دابر كل شك، فقد حكى الله إجابة الملائكة امرأة إبراهيم في قوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[4]

---

(١) سورة هود الآية (٧٢).

(٢) سورة الذاريات الآية (٢٩).

(٣) سورة آل عمران الآية (٤٧).

(٤) سورة هود الآية (٧٣).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[1] وإجابتهم مريم بقوله: ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] وفي هذا ما يدل أن السنن التي لا تتبدل هي غير ما يعنون.

وبتأمل الآيات التي دلت على عدم تبدل سنته تعالى من خلال سياقها؛ يتبين لكل ذي بال أن تلك السنة هي إزهاق الباطل بالحق، وقطع دابر أهله بظهور المحقين عليهم، هذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[3].

وقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً

---

(١) سورة الذاريات الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٧).

(٣) سورة الإسراء الآيات (٧٦-٧٧).

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1].

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[2].

وقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[3].

فأنت ترى حسب سياق هذه الآيات كلها أن سنة الله التي لا تتبدل إنما هي نصرته للحق على الباطل، وانتصاره

(١) سورة الأحزاب الآية (٦٠-٦٢).

(٢) سورة فاطر الآية (٤٢-٤٣).

(٣) سورة الفتح الآيات (٢١-٢٢).

لأوليائه من أعدائه، وبهذا التأويل يتيسر الجمع بين هذه النصوص الدالة على عدم تبدل سنة الله، والنصوص الأخرى الدالة على ما يقع في الوجود من أمور خارجة عما هو مألوف عند البشر من نواميس الكون، وتأويل القرآن يجب أن يصان عما يوهم أي تناقض بين آياته، على أن في هذا التأويل انتهاجا لاعتبار سياق الآيات دليلا واضحا على معانيها.

وقد أخذوا أخيرا يرددون أن كل ما يجري في الكون إنما يجري وفق حكمة ربانية لا تشذ أفعال الله تعالى عنها، ونحن نؤمن قطعاً أن أفعاله تعالى كلها جارية على سنن حكمته البالغة، ولكن أنى للعقل البشري أن يحيط بحكمته سبحانه؛ حتى ينكر الحقائق ويكذب الأخبار إن لم تكن وفق ما ألفه واتسع له علمه ويدعي أن ما يجري في الكون خلاف نواميسه المألوفة للبشر خارج عن حكمته ﷻ، كيف وحكمته تعالى بحر لا ساحل له ولا قعر، تحطمت سفائن العقول، وغرقت بين تعاظم ثجه وتلاطم موجه، حتى أن الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين

وقفوا عاجزين عن الحوم حول حماه خشية أن تطم عليهم موجة من عبابه فتغرقهم.

فكيف يزعم هؤلاء أنهم قادرون على اقتحام هذا العباب والعوم بين لججه والغوص في أعماقه، حتى ينتهوا إلى قعره ويحيطوا بجميع أبعاده فيميزوا بين ما هو وفق الحكمة الربانية وما هو خارج عنها؟!، أوليس هذا هو الغرور القاتل والجهل المردي، أولم تكن لهم في ملائكة الله تعالى أسوة إذ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]، أولا يقولون كما قال الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] أولا يكفيهم أن يسلموا كما سلم رسل الله المصطفون الأخيار لحكم الله تعالى وحكمته مع الإذعان والاعتراف بأنهم جاهلون بما أخفى الله عنهم من أسراره

(١) سورة البقرة الآية (٣٢).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٩).

العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع

الغيبية، ليت شعري ألا يشفقون على أنفسهم من الهلكة وقد ادعوا ما ليس لهم به علم، وتعرضوا لما لا قبل لهم به.

الكرامة بين الحقيقة والوهم:

لقد ملأ هؤلاء الدنيا ضجيجا منكرين أصل الكرامة ومسفهين القائلين بإثباتها، ولم يلقوا نظرة إلى كتاب الله تعالى فتعود إليهم بالحق اليقين أن أصل الكرامة ثابت بالنص القرآني فيما حكاه الله تعالى من قصة أصحاب الكهف؛ الذين ضرب على آذانهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، مع أنهم في هذه المدة لم تكن تتغذى أجسادهم بغذاء مادي من خلال وسيلة معروفة للناس، إذ لم يكونوا محاطين بهالة من الأطباء أو غيرهم يعتنون بهم ويحافظون بوسائلهم عليهم وعلى حياتهم، وإنما كانت عناية الله وحده كفيلة بإبقائهم أحياء هذه المدة المتطاولة لم تهلك فيها أجسامهم ولم يطرأ عليها ما يغيرها، وقد عادوا إلى طبيعة الحياة بعد انقضائها، أوليست هذه كرامة من الله تعالى، فإن لم تكن

كذلك فبأي تفسير تفسر؟! فالمنكرون للكرامة رأساً إما أن ينكروا ما أخبر الله من شأنهم وحسبهم من ذلك كفرا بواحا، وإما أن يأتوا بتفسير مادي مما هو مألوف للبشر له.

ومع تعذر التفسير المادي لهذه الواقعة حتى تكون كسائر ما يحدث للبشر مما هو داخل في سنن الحياة يتحتم أن تفسر بأنها كرامة من الله أكرمهم الله تبارك وتعالى بها، والعجب كل العجب مما يبالغ في إنكار قصة أصحاب الرقيم؛ التي أشار الله تعالى إليها في معرض ذكره لأصحاب الكهف، مع أنها ليست أغرب وأعجب من قصة أصحاب الكهف، إذ غاية ما أثبتته الروايات في قصة أصحاب الرقيم أن الله سبحانه أزاح عنهم الصخرة؛ التي سدت باب غارهم الذي كانوا فيه بتوسلهم إليه بأعمالهم الصالحة، وما الذي يمنع في العقول أن يستجيب الله دعاءهم فيكشف ضراءهم، مع أن تزحزح الصخر من مكانه بإذن الله أمر معهود، سواء كان ذلك بسبب مألوف أو بدونه، على أنه تعالى امتن على عباده في كتابه بنص صريح بإجابته

دعاءهم وكشفه ضراءهم، فهو القائل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[١].

فأي غرابة في كشف الله سبحانه ضراء هؤلاء رحمة منه بهم، وقد لجأوا إليه في محنتهم، ودعوه بقلوب مخلصة وألسنة صادقة وتوسلوا إليه بما سبق أن قدموه من صالح الأعمال؟! وإن العاقل ليدرك ببصيرته الوقادة أن كشف هذه الضراء ليس بأعجب مما كان لأصحاب الكهف؛ الذين صدقوا الله فصدقهم وعده، وأنقذهم من عدوهم بكيفية لم تكن مألوفة قط في زمانهم ولا قبلهم ولا بعدهم، وما المسارعة إلى تكذيب هذه القصة من أصلها وعَدُّها خرافة نسجتها أوهام ذوي الأحلام السفيهة إلا اجتراء على القول بغير هدى من الله، مع أنه تعالى جعل أصحاب القصتين من عجائب آياته حيث قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ

(١) سورة النمل الآية (٦٢).

أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[1]، فما الداعي لهذه المجادلة العقيمة وإضفاء صفة الوهم والخرافة على هذه القصة؟!.

على أن إقرارنا للكرامة واستنكارنا لإنكارها لا يعني بحال إثباتنا لكل ما ينسب إلى الناس من الكرامات، وإنما نستنكر إنكار أصل الكرامة مع وجود أصلها في كتاب الله كما سبق ذكره، فإنكار أصلها إنما هو رد لما ثبت بالنص القطعي؛ الذي لا يقبل التأويل، كإنكار أصل خوارق العادات، وقد علمت ثبوتها بالنصوص القاطعة كما سبق ذكره، وما الشك أو التشكيك في ثبوتها إلا تشكيك في قدرة الله المطلقة؛ التي لا تحصرها حدود ولا تقيد آثارها سنن، فإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١) سورة الكهف الآية (٩).

هذا؛ ومع ما كان عليه الإمام محمد عبده من محاولته تفسير الغيبيات بما يتفق مع مألوف البشر لم ينكر أصل الكرامة، وإنما ذهب إلى أن آحاد ما ذكر من الكرامات للناس لا يكلف الناس التصديق به مع عدم وجود النص الدال عليه.

وبعد أن حكى الخلاف بين المعتزلة ومن وافقهم وبين غيرهم في الكرامة قال:

"واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ما جاء في الآيات أما أن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها وأما ما

احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لأن ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الأنبياء عليه الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله في أنبياء ذلك العهد إلا قليلا.

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر وأما مجرد الجواز العقلي وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء.

وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى

لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولى كان ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون".اهـ[1]

فأنت تراه – مع تحفظه المبالغ فيه في إقرار ما يتردد على ألسنة الناس من الكرامات – لم ينكر أصل الكرامة رأسا بل قال: "بأن مجرد الجواز العقلي لصدور خارق للعادة على يد غير

---

(١) رسالة التوحيد، لمحمد عبده، ص١٥٩-١٦٠، دار إحياء العلوم بيروت.

نبي مما تتناوله القدرة الإلهية لا يظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء".

وإنما أتبع هذا بأنه "لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام"، ونحن مع هذا الاعتقاد، فإننا لا نقول بأنه يكفر أو يفسق من لم يصدق بكرامة معينة ذكرت لأحد بعينه، غير أننا نقول بأن ما ثبت من ذلك بالحس أو بالنقل الصادق الذي لا يشوبه شك لا يكون موضعا للارتياب، فنحن نؤمن بأن الله على كل شيء قدير، وهو يختص من يشاء من عباده بما يشاء من ألطافه.

ومع هذا كله فإننا نؤكد بأن ما شاع من الكرامات ليس مقياسا لصلاح الإنسان وبره ومنزلته عند الله ﷻ، وإنما يقاس ذلك بأعماله وموافقتها لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فإن الله ﷻ بين من هم أولياؤه من خلقه بقوله: ﴿أَلَا

إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1]، فمقياس الولاية الإيمان والتقوى دون الخوارق.

على أن هذه الخوارق لا يستحيل أن تقع لغير المتقين، ولذلك فرق العلماء بين خارقة وأخرى فقالوا إن وقعت لنبي في مقام التحدي فهي معجزة، وإن كانت قبل نبوته فهي إرهاص، وإن كانت لبرٍ صالح من غير النبيين فهي كرامة، وإن كانت لعامي فهي معونة، وإن كانت لكافر أو فاسق فهي استدراج.

وكم تقع أمور لا يتصورها العقل ولا يجد لها تفسيرا ماديا، وإنما هي من ألطاف الله تعالى التي يختص بها من يشاء من عباده رحمة أو ابتلاء.

وحسبنا من ذلك ما كان في ذلك الطوفان الهائج المدمر؛ الذي اجتاح كثيرا من القرى والمدن بشرق آسيا، وأهلك أمما بلغ

---

(١) سورة يونس الآية (٦٢-٦٣).

تعدادها مئات الآلاف، وذلك في أواخر عام ألف وأربعمائة وخمسة وعشرين للهجرة النبوية وكان من آثاره أنه أتى على سفينة بحرية تزن آلاف الأطنان فقذف بها في عمق البر فرسخين ونصف الفرسخ، ومع هياجه هذا وعظم تلاطم أمواجه تلاطما - تعجز النفس عن تخيله - جعل الله ﷻ نجاة طفل رضيع بتلكم الأمواج العاتية التي أهلكت غيره، إذ سبحت به مخدة بين تيارها الزخار حتى التقط سليما ليس به خدش ولا أذى، وقد التقطت الأقمار الصناعية صورته صحيحا لم يكدر صفو عيشه إلا فقدانه لجميع أهله وأسرته.

فليت شعري؛ بأي تفسير مادي يفسر منكرو الخوارق هذا الحدث الغريب؟ أيقذف البحر الهائج بأمواجه المتلاطمة سفينة فيخرجها عن محيطه الطبيعي تلك المسافات السحيقة في البر كما تعصف الرياح بالريشة الخفيفة، وتكون به نجاة هذا الطفل بهذه الطريقة المحيرة للألباب، أوليس في هذا ما يدعو المعاندين إلى التخلي عن عنادهم، والإيمان بأن الله يفعل ما يشاء

ويحكم ما يريد، وأنه لا أثر للأسباب في مسبباتها إلا بإذنه، وما شاء كونه كان من غير أسباب معقولة؛ لأن إرادته النافذة في خلقه هي التي تصرف الأسباب والمسببات ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]؟.

فإن أصر هؤلاء على عنادهم وادعوا - كما هو ديدنهم - بأن ذلك يرجع إلى أسباب طبعية مألوفة، فإنني أتحداهم أن يقذفوا بأولادهم بين أمواج البحر العاتية على مخدات تقطع بهم تيّارها حتى تصل بهم إلى بر الأمان، وإن شاؤا فليجربوا بأنفسهم بأن يقتحموا لججها على فرش أوسع من المخدات، وإلا فليدركوا أنهم يجادلون بغير برهان.

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِّ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1].

---

(١) سورة يس الآية (٨٢).

وكم شاهدنا وسمعنا أحداثا وقعت لبعض الناس تذهب بعقل اللبيب، ولا يملك أمامها إلا أن يخضع ويسلم تسليما لأمر الله تعالى، موقناً أن ألطافه تعالى لا تقف عند حد، وأن أمره لا يتوقف على أسباب يفسر بها نفوذ مشيئته في خلقه، فقد ينجو الإنسان وقد أحاطت به أسباب الهلكة، ويهلك وقد اكتنفته أسباب النجاة.

قبل عقدين من السنين رنّ عندي جرس الهاتف سحرا في جوف الليل المظلم، وعند حملي للسماعة تلقيت نبأ من أحد مستشفيات السلطنة أن أحد الشيوخ الذين بلغوا من الكبر عتيا، وأرهقهم المرض يجود بنفسه بين أهليه وخاصته، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وأخبرني المتصل أن أبناءه هم الذين حملوه هذه الرسالة إليَّ، وقد ظننت بأنه لن يتنفس الصبح إلا وقد غادر الحياة الدنيا، فلما هزم النهار بفلقه الزاحف جحافل الليل المظلم وآنس الفضاء ببسمة بياضه بعدما أوحشه الليل البهيم باكفهرار

---

(١) سورة الحج الآية (٨-٩).

سواده المطبق أعدت الاتصال لأتأكد مما كان مستقرا في نفسي فإذا بي أفاجأ أن الرجل لا يزال حيا، بل أخذت الحياة تدب في جسمه، وتطوي اليأس عن أهله كما طوى النهار سدول الليل الساجي، فلم يلبث إلا أياما حتى خرج من المستشفى صحيح الجسم منتعش النفس، وبعد بضعة شهور استقبل شهر رمضان المبارك فكان يقوم ليله ويصوم نهاره، ويؤم المتهجدين فيقرأ في تهجده جزأين من القرآن.

وفي مقابل هذه القصة كان رجل ذو مرة في ريعان قوته وقد عدا على قدميه نحو ثلاثين كيلوا مترا بين الجبال الصلبة والأودية الوعرة، وقد سألته بنفسي عن قصة عدوه فأكدها لي، وإذا به بعد عام أو أقل كان في سمر فطلب لجلسائه من مطعم قريب منه مشروبات باردة، وطلب لنفسه لبنا، وقال بأنه يحس بإرهاق ويريد أن يريح نفسه دقائق، فتمدد وأكد على صحبه أن يوقظوه إذا أزفت نشرة الأخبار، فلما أتوه قبيل النشرة وجدوه قد فارق الحياة، فانظر إلى حكمة الله وقدره، يموت الصحيح

ويتتعش السقيم من غير أن تعرف لذلك أسباب ظاهرة، وإنما هي إرادة الله تنفذ في خلقه.

يقضي بما شاء والأسباب جامدة ... ويحكم الأمر والأفكار عميان

إن الذي يتعاطاه الذكاء لدى ... حكم المقدر تخمين وبهتان

ما حيلة الظن والأوهام في قدر ... إلا قصور وعجز ثم إذعان[(١)]

وقبل نحو ربع قرن من الزمن جاءني أحد الشباب، وكانت إحدى أخواته طالبة في دولة أجنبية، وقد ألم بها من المرض الخبيث، ما جعل الأطباء يقطعون الأمل في حياتها، وكانت اتفقت قبل ذلك مع أحد زملائها الشباب على أن تقترن به، وقد رأى ذلك الشاب أن يوفي لها بوعده الذي قطعه لها، فعقد عزمه على عقد قرانه بها مهما كلفه ذلك.

---

(١) ديوان أبي مسلم، ناصر بن سالم بن عديم الرواحي،ص٣٠٤ ، عني بطبعة ونشره صالح بن عيس الحارثي، ١٤٠٦-١٩٨٦.

على أن الأطباء قرروا بأنها لن تعيش أكثر من عام، وأراد مني أخوها أن أعقد قرانهما فحضر الشاب مع الأخ ولفيف من أهلهم فعقدت قرانه بها في منزلي، وما كان في حسبانهم أن ترجع إلى بلدها إلا إن كانت جثة هامدة، وقرروا – حسب نصح الأطباء – أن تظل في ذلك البلد الأجنبي بقية حياتها تحت العناية الطبية المركزة، وما هي إلا برهة من الوقت حتى عادت إليها الصحة وانقلبت من البلاء إلى العافية، وعادت مع زوجها بعدما قضيا دراستهما، فتبوأ زوجها بعد سنين مكانا عاليا في الدولة، وتقلد منصبا مرموقا فيها، وقد رزقهما الله الذرية، وقبل سنوات من الآن كنا معا في رحلة إلى جمهورية مصر العربية، فسألته عن أولاده، فأجابني بأن أكبرهم تجاوز مرحلة الثانوية وهو يتحفز لدخول الجامعة، والمرأة لا تزال حية ترزق.

وقبل أقل من ثلاث سنوات من هذا الوقت التقيت بمنزل السفير العماني بالجمهورية العربية السورية بالشاعر

السوري الأديب مصطفى عكرمة، فأنشدنا من شعره قصيدة رائعة تعد ملحمة تأريخية، يحكي فيها قصة رجل من قرابته كان طبيبا في الجيش السوري فاتفق مع فتاة صيدلانية على الزواج، وإذا به يفاجأ بأن الأطباء ينبؤونه بأن المرض الخبيث – والعياذ بالله – سرى في جسمه وامتد إلى جوانب خطيرة منه بحيث لا أمل في عيشه أكثر من ستة أشهر، فقرر إلغاء خطبة مخطوبته تلك، ولكنها رفضت ذلك وأصرت عليه بأن يتمم ما اتفقا عليه، وإن بقيت في كنفه يوما واحدا.

وقالت له: "لأن تلقى الله ذا أهل خير من أن تلقاه أعزب"، فلم يجد بدا من إنجاز ما وعدها إياه وتم عقد قرانهما، وأخذ يعالج نفسه بالصدقات عملا بوصية رسول الله ﷺ، فإذا بالمرض يغادر جسمه كما كان متوقعا أن تبرحه الحياة، وعاد إلى صحته، ورزقهما الله تعالى ثمانية من الأولاد، وهو لا يزال إلى ذلك الوقت حيا يرزق، أولا يكفي ذلك كله حجة ودليلا بأن

يد الله القاهرة هي التي تصرف كل شيء في الوجود، ولو لم تكن له أسباب ظاهرة؟.

وكم تطالعنا باستمرار وسائل الإعلام من صحافة وغيرها بأنباء فيها من الغرابة ما لا يجد له العاقل تفسيرا ماديا، وإنما يجد المؤمنون في ذلك ما يقوي إيمانهم وصلتهم بمبدع الوجود الذي له الخلق والأمر، أوليس في ذلك كله ما يكشف اللبس ويحل اللغز المعمى بتبصير الإنسان أن الأمر كله بيد الله، فلا عجب في أن يقع أمر بدون سببه المعتاد، أو يتعطل سبب فلا يفضي إلى مسببه.

قصص الكرامات في الميزان:

هذا – وإن كنا نؤمن بإمكان الكرامة، بل وبوقوعها كما دل عليه القرآن – لسنا نصدق بقصص جميع الكرامات المنسوبة إلى أصحابها بعُجَرها وبُجرها، فإن كثيرا من الناس أطلقوا لخيالهم العنان في اختلاق كرامات ليس لها أصل من الواقع ولا

نصيب من الصدق، وألبسوها من الوهم نسيجا مهلهلا، وحشروا معها من الأساطير ما يدركه العاقل ببصيرته أنه أبعد ما يكون عن الحق والحقيقة، وقد جاؤوا شيئا إدا عندما عدوا من الكرامات أمورا يستحيي العاقل من ذكرها بلسانه فضلا عن نسبتها إلى من يعده من أولياء الله الصالحين، فمنها ما يتنافى مع الدين والأخلاق، ومنها ما يتعارض مع النصوص الشرعية المؤكدة لبراهين العقل، ولا أشك أن كل من له نصيب من العقل فضلا عن الدين يبرأ إلى الله ﷻ من تلك الكرامات ومختلقيها ومصدقيها.

على أنها لم تكن مجرد حكايات وقصص يحكيها المبرسمون؛ الذين يهذون بما لا يدرون ويهرفون بما لا يعرفون، وإنما ملئت بها أجواف كتب، ودنست بها أكوام صحف، فغدت تتوارث أنباؤها أمة بعد أمة، وحسب الإنسان أن ينظر من ذلك إلى الكتاب المسمى بـ"الطبقات الكبرى" المعزو إلى الشعراني ليرى من ذلك العجب العجاب، ولم تسلم من هذا الإفك حتى

المدونات المخصصة للوعظ والتذكير، فكم تجد في كتاب "الروض الفائق في المواعظ والرقائق" من أساطير أطلق عليها اسم الكرامة، يكاد يصعق منها حتى المجانين، ناهيك أن مما ذكر فيه من كرامات معروف الكرخي أنه لما مات ودفن أعتق الله تعالى ممن دفنوا حوله عن يمينه ثلاثين ألفاً، وعن يساره ثلاثين ألفاً، ومن جهة رأسه ثلاثين ألفا، ومن جهة رجليه ثلاثين ألفا كلهم استوجب النار.

ولئن كان الله تعالى أكرم بهذا معروفا الكرخي فما بالك بنصيب سائر الأولياء؛ ممن يعتقون – لأجلهم إكراما لهم – من النار!!، وما بالك بالذين يعتقون من أجل الأنبياء والمرسلين لاسيما مسك ختامهم وبدر تمامهم؛ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، أليس مقامه وقدره – بناء على هذا المذكور – يقتضي أن يعتق من أجله جميع أهل الأرض من النار، مهما كانت جرائمهم التي ارتكبوها، وضلالهم الذي تلبسوا به، فلا يبقى للنار نصيب من الخلق حتى إبليس إمام العصاة ورائد الكفرة؟!!.

أوليس هذا الاعتقاد الضال – إن تغلغل في النفوس واستحكم في العقول – هو الذي يدفع الناس دفعا إلى التمرد على الدين، ونسيان حق الله تعالى والاستجابة لدعوة الشيطان؟.

ثم من أين أتاهم هذا العلم، ومن أي مصدر تلقوا هذا اليقين، مع أن الغيب ما لنا إليه من سبيل إلا سبيل الوحي، وباب الوحي سدَّ بلبنة الختام عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، فلم يبق بين أيدينا سبب للوصول إلى الغيب إلا ما تلقيناه عنه، فكان مسطوراً في كتاب ربه أو مأثورا في سنته الصحيحة الثابتة، وأنى لنا بهذا الخبر في كتاب أو سنة؟! .

ومثل هذا ما اطلعت عليه في بعض الدراسات الجامعية الناقدة لهذه الأوهام الباطلة، والخرافات الضالة؛ أن رجلا ممن يسمون بالأولياء وقف بين يدي الله تعالى فسأله الله سبحانه ماذا تريد؟ فسكت، فكرر عليه المسألة مرة بعد أخرى، فقال: تأمر ملائكتك أن ينفذوا أمري، فأمر الله سبحانه ملائكته بذلك، فأمرهم أن يذهبوا به إلى النار، فكبر عليهم ما كلفهم به فاحتج

عليهم بأن الله سبحانه أمرهم بتنفيذ أمره، فلما ذهبوا به ووقف على شفيرها ارتمى فيها وأخذ يخوض بين سعيرها قاطعا مسافاتها جيئة وذهابا، حتى أتى على جميع جوانبها، وأخرج منها كل من كان فيها من أهل بلده فزحزحهم بعيدا عنها.

فيا لله للعجب؛ أين بصائر هؤلاء الناس؛ الذين يروجون لهذه الأكاذيب ويشيعونها، وهل بلغ بهم سفه العقول وانطماس البصائر أنهم ظنوا بأن الناس لا بصائر لهم يميزون بها بين الصدق والكذب، والحق والباطل، والممكن والمستحيل؟!! بل لو كانوا يخاطبون بهائم عجما كان حريا بهم أن يستحيوا من الإتيان بهذه السخافات، وإشاعة هذا الهراء.

وقد اطلعت –فيما اطلعت عليه– على ترجمة لأحد الذين يسمونهم الأولياء جاء فيها: "ولما كانت حياته حياة الرسل والملائكة المقربين، كانت تتجلى له الأشياء على حقائقها، ومعرفة

الشقي والسعيد، ومعرفة الآجال ومداها، وكانت تزوره الملائكة والأنبياء والأموات يقظة، ويستمد منهم المدد".

وأنت تعلم أن ما ذكره لهذا الولي المزعوم لم يكن للأنبياء والرسل ولا للملائكة المقربين، فما كان لأحد منهم أن يعرف الأشقياء والسعداء إلا أن يوحى إليه، لذلك كان النبي ﷺ يعامل الناس بما يظهر من أحوالهم دون ما يكنونه في سرائرهم، ودون ما هو سابق في علم الله مما يقع منهم في مستقبل أمرهم، وقد دل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "وليذادن رجال عن حوضي كما يزاد البعير الضال فأناديهم ألا هلم فيقال إنهم قد بدلوا بعدك فأقول فسحقا فسحقا"[١]، وهو دليل على أن النبي ﷺ لم يكن يعلم من غيبهم شيئا؛ لأن حكمة الله اقتضت أن لا يوحي به إليه.

---

(١) سورة البقرة الآية (١١٨).

وقد نص القرآن الكريم على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله إليه فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١]، فبناء على هذا يكون قدر هؤلاء الأولياء عند هؤلاء المخرفين أعظم من قدر رسول الله ﷺ بمراحل لا تحصى، فأنتم ترون أنهم يدعون لأولئك معرفة السعداء والأشقياء، كما يدعون لهم أنهم يملكون منفعة العالم ومضرته في الدنيا والآخرة، بحيث يمكنهم أن ينقذوا من النار من شاؤوا ويذروا فيها من شاؤوا، والله المتسعان.

هذا؛ وقد ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في تفسير "المنار" من أمثال هذه القصص العجب العجاب، من أجل الاعتبار بأحوال هؤلاء السخفاء، ومما جاء في ذلك قوله: "جاء

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٨).

في كتب الرفاعية أن الشيخ أحمد الرفاعي مس بيده سمكة فأراد شيها بالنار فلم تؤثر فيها النار، فذكروا له ذلك، فقال: وعدني العزيز أن كل ما لمسته يده هذا اللاش[1] حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة.

وجاء فيها أن سيدي أحمد الرفاعي كان يميت ويحيى، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني، وأنه وصل إلى مقام صارت السماوات والأرض في رجله كالخلخال، وفي البهجة الرفاعية أن سيدهم أحمد الرفاعي باع بستانا في الجنة لبعض الناس، وذكر له حدودا أربعة!!.

وقال أيضا: "وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلي، أنه مات بعض مريديه، فشكت إليه أمه فبكت، فرق لها، فطار وراء ملك الموت في المساء وهو صاعد إلى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الأرواح في ذلك اليوم،

(١) مختصر عن "لا شيء" انظر لسان العرب، ج٦ ص٣٤٨.

فطلب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها إليه، فامتنع، فجذب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الأرواح، فذهبت كل روح إلى جسدها، فصعد ملك الموت إلى ربه، وشكا ما فعله عبدالقادر، فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله – إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الأول من المجلد التاسع من المنار – تنزيها وأدباً مع ربنا ﷻ".

ثم قال: "ونقلنا ثم أن خطيبا خطب المسلمين في الهند ذاكرا مناقب الشيخ عبدالقادر، فقال: إن حدأة قطفت قطعت لحم مما ذبح للشيخ عبدالقادر في مولده – كما كان يذبحون للأصنام – فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبدالقادر"، وقال على أثر ذلك: "ويا ويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله

تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وإنكار الكرامات، وقول اللقاني:

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا ينافيها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضر، وتدبير الأمر وترك الفرائض، وارتكاب الفواحش، لأنها لا تكون من أوليائهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية".

وأتبع ذلك ذكر العديد من الشواهد:

الشاهد الأول: ولي الشيطان وموحد إبليس.

نقل عن الشعراني أنه قال في ترجمة محمد الخضري: "كان من أصحاب جدي رضي الله عنهما وكان يتكلم بالغرائب

---

(١) سورة يونس الآية (٦٢).

والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحيا، فإذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا وكذا بلدا في وقت واحد، وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة، فقال: بسم الله، فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده، ثم قال: "وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم وصلى بهم، قال: فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا.

وأخبرني الشيخ أحمد القلعي أن السلطان قايتباي كان إذا رآه قاصدا له تحول ودخل البيت خوفا أن يبطش به بحضرة الناس، وكان إذا أمسك أحدا يمسكه من لحيته ويصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له إطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر

الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي آكل منه، و أجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في باطنهم"، وعلق على هذا السيد رشيد رضا بقوله: "لولا أن سلطان هذا القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لهذا المجنون مأوى إلا البيمارستان (أي المستشفى) يكف كفره وشره عنهم".[1]

قلت: بئس ما وصفه به مترجمه؛ إذ لم يصفه إلا بالكفر ومساوئ الأخلاق، وغلظ الطباع، فأين أخلاق أهل الإيمان؛ التي وصفهم بها القرآن، ووصفهم بها الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام؟ ناهيك بما وصف الله ﷻ به نبيه عليه الصلاة والسلام إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

(١) تفسير المنار ج١١ ص٤٢٣-٤٢٤.

(٢) سورة القلم الآية (٤).

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وقال فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وأمره سبحانه بمكارم الأخلاق في كتابه؛ إذ قال له: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[3]، وقال: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[4]، وقال: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5].

وقد وصف السيد رشيد رضا هذا الولي بأنه ولي شيطاني موحد ألوهية إبليس، ثم ذكر الشاهد الثاني، وعنون له بقوله:

(١) سورة التوبة الآية (١٢٨).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٥).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٩٩).

(٥) سورة فصلت الآية (٣٤).

كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأتان:

قال في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النحارية) "كان ﷺ من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد، وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوما في خط بين القصرين فقال لي: وديني للزلباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطأ (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وقال يوماً لبنات الخطأ أخرجوا (؟) فإن الخان رائح يطبق عليكم، فما سمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فمتن كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها،فإن أبى شيخ البلد تسمر في

الأرض لا يستطيع أن يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه، وكان له أحوال غريبة وقد أخرجت عنه سيدي محمد بن عنان (رض) فقال هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة"اهـ

ثم علق بقوله: وولاية هذا المجنون أنه قواد للعاهرات بضمانة المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لكرامته.اهـ

قلت: أنظر كيف بلغ السخف بهؤلاء الحمقى أن جعلوا هذا الانحدار في الأخلاق والارتكاس في الرذيلة كرامات يفاخرون بها، ومناقب ينشرونها، وحسب الإنسان أن الفطرة السليمة تأبى على سوي الطبع أن يجعل من هذه السفاهات محامد تتلى.

ثم ذكر الشاهد الثالث وعنونه بقوله:

ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهذيان:

وقال: " قال في ترجمة شعبان مجذوب إنه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيخه علي الخوَّاص أن الله تعالى كان يطلعه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، وأنه كان يسأله عما يشكل عليه".

ثم قال: وكان يقرأ سورا غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل.

وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرؤون في البيوت فصغيت إلى ما يقول، فسمعته يقول: وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمؤتفكات يضربوننا فيأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين، ثم قال: اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان إلى آخر ما قال.

ثم ذكر أنه كان عريان دائما إلا أنه يستر سوأتيه بقطعة جلد أو بساط أو حصير؛ لأنه كان يحرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا، قال: وكانت الخلائق تعتقده اعتقادا زائدا لم أسمع قط أن أحدا ينكر عليه شيئا من حاله، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم تحنينا عليه من الله تعالى".اهـ[(١)]

وقد أتبع السيد محمد رشيد رضا هذه النقول بقوله: "إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعد هذا المجنون من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره، وإن تكرر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية، ويعتمد على كشفه، فهل نكون مخطئين إذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانيين مثله، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين، وهل يوجد دليل على أن ذلك الجنون كان تخبطا شيطانيا لا جذبا

---

(١) المرجع السابق ص٤٢٥-٤٢٦.

إلهيا، أقوى من معارضة صاحبه للقرآن بمثل ما نقله الشعراني مما سمعه منه ورواه عنه من الهذيان؟.اهـ(١)

ثم أتبع ذلك ذكر شواهد أخرى شبيهة بما تقدم، وقد ضربت صفحا عن إيرادها لما تسببه من الغثيان ولما في تسطيرها من إضاعة الوقت فيما لا طائل تحته، ولولا رغبتي في التنبيه على أننا لسنا مع مثل هذه الكرامات؛ التي يندى الجبين لذكرها، ويتمعر الوجه بقراءتها، لما سطرت هنا حرفا واحداً فيها، وإنما أردت أن يدرك القارئ أننا – وإن كنا لا ننكر الكرامات – لسنا مع الخرافات، وإنما نثبت من الكرامات – بعد التثبت والاحتراز – ما كان بعيدا عن السخافات، ولم يتصادم مع أدلة العقل أو النقل أو حقائق العلوم؛ التي لا مرية فيها.

---

(١) المرجع السابق ص٤٢٦.

نقض دعوى انشقاق الغار والسماوات لأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة - رحمه الله -

هذا؛ وقد رفضنا قصة انشقاق الغار المنسوبة إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة رحمه الله تعالى، وما تلاه من تسلسل الانشقاق في السماوات حتى بان العرش؛ لأجل تعزيز الحق، وتثبيته في قلوب المؤمنين، وذلك لعدة أسباب:

أولها: أن القرآن الكريم دل على أن انشقاق السماوات إنما يكون عند انتهاء الكون، وتداعي بنائه، وتفكك نظامه، فقد آذن الله تعالى مع ذلك بوعيده للذين كفروا في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾(١)، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٥-٢٦).

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[2].

ثانيها: أن دلائل العلم كشفت – بما لا يدع مجالا للشك – أن انشقاق السماوات مؤذن بانتهاء الكون وزواله.

ثالثها: أن القصة لم يتعرض لها أحد قط في عهد أبي عبيدة، وتلامذته، ومن جاء من بعده، ممن كتب في مجال الدعوة والدفاع عن الحق، وكم لأولئك من صحف مزبورة في هذا المجال، ناهيك بما هو مدون في السير والجوابات، بل لم يكن لهذه القصة قط ذكر قبل القرن الرابع عشر الهجري، وما كانت لتفوت الأولين لو كانت صحيحة ثابتة.

---

(١) سورة الانشقاق الآيات (١-٦).

(٢) سورة الأنفطار الآيات (١-٥).

رابعها: أن الحق يعلم بدليله لا بالخوارق، وعندما طلب الناس الآيات في عهد رسول الله ﷺ ردوا إلى القرآن، المعجزة الباقية؛ التي لا تنتهي بمرور الزمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، فما كان أسهل على أبي عبيدة أن يقنع تلامذته بالحق بالرجوع إلى القرآن،

---

(١) سورة الإسراء الآية (٥٩).

(٢) سورة طه الآية (١٣٣).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٥٠-٥١).

وإلى السنة الثابتة عن المصطفى عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

خاتمة وردود شُبه في موضوع الكرامة

ولئن كان الناس استهوتهم الكرامة فبالغوا فيها حتى غرقوا في الخرافات إلى الأذقان، وأقحموا الإنسان فيما لا شأن له به إذ أخرجوه من حدود إنسانيته حتى جعلوه شريكا لله في ملكه، يعطي ويمنع، ويهب ويسلب، ويرفع ويخفض، ويحيى ويميت، ويبتلي ويعافي، ويسعد ويشقي، فإن علاج ذلك لا يكون بإنكار الكرامة رأسا، إذ الخطأ لا يصحح بخطأ مثله، والباطل لا يدفع بباطل آخر، وإنما يعالج الخطأ بالصواب، ويدفع الباطل بالحق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]، وإنما الحق في كل أمر وسط بين طرفي الباطل، من غير ميل إلى أحدهما، لذلك جاء القرآن ليقرر نهج الحق، ويعلن به كلمته الصادقة الصادعة، ليدكدك بها صروح الباطل، ويأتي بها على زخرفه كيفما كانت صورته، ومن أي طرف كان

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٨).

مصدره، فتراه في قصة المسيح عليه السلام توسط بين طرفي الباطل؛ فأبطل ما قالته النصارى الغالية التي اتخذته وأمه إلهين من دون الله، وزعمت أن حقيقة اللاهوت امتزجت بناسوته فاتحدا، أو أنها أتت على كل شيء من طبيعة ناسوته؛ فتحول من إنسان إلى إله، كما أبطل مقولة اليهود الآفكة الظالمة فيه وفي أمه عليهما السلام، وبرأتهما من هذا القول الباطل، وكذلك ما نحن بصدده؛ لا يسوغ فيه جحد الحقيقة لاجتثاث الوهم، ولا إنكار الحق للتشكيك في الباطل، وإنما الحق حق والباطل باطل، من أي وجهة ناقض الحق أو خالفه، سواء كان ذلك بالمغالاة وتجاوز الحد، أو كان بالإنكار ومكابرة الحقيقة، والغاية لا تبرر الوسيلة؛ حتى يزعم زاعم أنه لا سبيل لتطهير العقول من رجس الخرافات إلا بإنكار خوارق العادات على الإطلاق.

ونحن في إثباتنا للكرامات لم نَعْدُ أن نكون مستهدين بهدي القرآن، ففيما تقدم ذكره ما هو كاف لإثبات الخوارق ومن بينها الكرامات، ولكن هذا لا يعني بحال أن كل ما نقل من

الكرامة هو ثابت صحيح، فلا بد من التثبت والاستيقان، كما أننا لا نحمل كل ما يكون مخالفا للنواميس المعهودة على أنه كرامة، فكم يكون الأمر العجيب الخارج عن السنن المعتادة استدراجا لصاحبه والعياذ بالله، وإنما العبرة في ذلك بالاستقامة وعدمها، كما أننا لا نقيس تفاوت الناس في الفضل بقدر ما ينسب إليهم من الكرامات، وإنما المعيار في ذلك موافقة أعمالهم وأقوالهم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، فهما الميزان القسط الذي لا خلل في معاييره، وبهما يعرف الصالح من الطالح، ويتميز البر عن الفاجر.

فإن قال قائل: بأن ثبوت الكرامات بالكتاب العزيز إنما هو للأمم السابقة قبل هذه الأمة، وقد عوضت هذه الأمة عنها بالقرآن، ولذلك أحيل عليه طلاب الآيات في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولم يجابوا بإيتائهم الآيات التي طلبوها.

قلنا: ليس في الكتاب العزيز ما يدل على طي صفحة الآيات في عهد هذه الأمة، أو اختصاص ذلك بالأمم السابقة، إذ ليست الآيات الكونية مرهونة بالتحدي وتأييد الرسالات، وإنما هي إكرام من الله سبحانه يكرم به من يشاء من عباده. ولله تعالى الخلق والأمر، وإنما المنفي في القرآن الكريم هو الإرسال بالآيات -أي قرن الرسالة بالمعجزات الكونية- وفي ذلك رحمة بهذه الأمة، لأن اقتران الرسالات بالآيات الكونية سبب لاستئصال الأمم؛ عندما تكفر بها، كما كان ذلك في قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وآله على أن تلك الآيات الكونية إنما تكون حجة على مشاهديها، دون من يأتي من بعدهم، وقد أراد الله لمعجزة الرسالة الخاتمة خلودها كخلود الرسالة نفسها، بحيث تكون حجة على من عاصر نزولها ومن يأتي من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا لا ينفي بحال أن تظهر آيات للناس فيها لطف بمن يختصهم الله بها، وفيما ذكرته من الأحوال التي عاصرناها ما يكفي حجة لذلك في نفس من

كان له قلب، وقد يكون ذلك ابتلاء إن قوبل بغير الشكر والطاعة لله ﷻ.

هذا؛ ونجد هؤلاء المجادلين ينكرون تسمية هذه الآيات بالمعجزة أو الكرامة؛ لعدم النص على ذلك في الكتاب أو السنة، وهي مجادلة عقيمة لا تنبئ إلا عن انطماس البصائر وضيق الأفق العلمي، فإن هذه مصطلحات تواضعت عليها الأمة، ولا مشاحة ولا نكير في الاصطلاح، على أنهم بأنفسهم يأتون بعبارات لا أصل لها في كتاب ولا في سنة، بل ولا في قواميس اللغة، ولا وجود لها في عبارات السلف الماضين، وكم سمعناهم يصمون مخالفيهم بالغنوصية والهرمسية، وأين أصل ذلك في الكتاب أو السنة؟ بل حسبنا أن يأتونا بشاهد على ذلك من كلام العرب؛ الذين يحتج بكلامهم أو من نقول أئمة العربية؛ الذين هم الحجة في فهم مضامين مفرداتها وسلامة عباراتها.

ارتباط النعم والنقم بحال الإنسان استقامة وانحرافا

دلت نصوص الوحي القاطعة أن لسلوك الإنسان أثرا على مجريات أحداث الكون، خيرا أو شرا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[2]، وقال في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[3]، وبين الله سبحانه أن ما يصيب

---

(١) سورة الأعراف الآية (٩٦).

(٢) سورة الجن الآية (١٦-١٧).

(٣) سورة المائدة الآية (٦٦).

الناس من المصائب – بما فيها الكوارث – إنما يعود إلى فعل أنفسهم، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1]، كما بين سبحانه أن فساد المترفين هو الذي ينعكس أثره السلبي على القرى فتدمر تدميرا، وذلك في قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[2].

وأتبع ذلك ما يشد انتباه الناس من هلاك القرون الخالية؛ التي عصت أمر ربها، فبادت بما قارفته من ذنوبها وذلك في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾[3]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ

(١) سورة الشورى الآية (٣٠).

(٢) سورة الإسراء الآية (١٦).

(٣) سورة الإسراء الآية (١٧).

تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى * وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾[2]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾[3].

وقد دعا الله سبحانه إلى المسير في الأرض والاعتبار بأحوال القرون الخالية؛ التي أهلكتها ذنوبها فكانت عبرة لمن يأتي من بعدها، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

(١) سورة الأنعام الآية (٦).

(٢) سورة طه الآية (١٢٨-١٢٩).

(٣) سورة السجدة الآية (٢٦).

فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[3].

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[4].

---

(١) سورة الروم الآية (٩).

(٢) سورة الروم الآيات (٤١-٤٢).

(٣) سورة فاطر الآية (٤٤).

(٤) سورة غافر الآية (٢١).

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وقال في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقال فيهم أيضا: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ

---

(١) سورة غافر الآيات (٨٢-٨٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٦٦).

شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

(١) سورة الأعراف الآية (١٦٣-١٦٦).

(٢) سورة الأنعام الآية (٤٢-٤٥).

وقص علينا في العديد من السور ما أصاب قوم نوح من الغرق، وعادا من الإهلاك بالريح الصرصر العاتية، وثمود من الإهلاك بالصيحة، وقوم لوطٍ من إهلاكهم بحجارة من سجيل منضود، وفرعون وآله من إغراقهم في اليم، وقارون من خسف الأرض به وبماله، كما قص علينا في سورة الفيل ما أصاب أصحاب الفيل من إرسال طير أبابيل.

ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وبعدما حكى في سورة القمر جانبا من أنباء هلاك الأمم المتكبرة العاتية أتبع ذلك قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[١]، وبعد ما ذكر إهلاك قوم لوط بالحجارة في سورة هود أتبع ذلك قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[٢].

(١) سورة القمر الآية (٤٣).

(٢) سورة هود الآية (٨٣).

وقال تحذيراً للكفرة العتاة؛ الذين كذبوا بآياته: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وفي هذا ما يدعو هذه الأمة إلى الاعتبار بأحوال القوم الظالمين، والاستبصار بمآل المعاندين المشاققين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[2].

على أن الله سبحانه لم يصرف آياته في كتابه بما ضمنه من أحوال هذه الأمم، وما آلت إليه من مصيرها المشؤوم؛ لتسلية قراء القرآن ودارسيه بهذه الأنباء، وإنما هو لتبصيرهم وتذكيرهم وتحذيرهم، حتى لا يؤولوا إلى مآلهم النكد، والمؤمن تزيد هذه الآيات إيمانه رسوخا، وبصيرته قوة، كما تزيد خوفه من الله تعالى ورجاءه؛ ليكون في جميع أحواله محاسبا لنفسه، وليجرد من

---

(١) سورة يونس الآيات (١٠٢-١٠٣).

(٢) سورة النازعات الآية (٢٦).

ضميره رقيبا على تصرفاته وأحواله، فلا يقدم على أمر أو يحجم عنه إلا عن بصيرة من ربه وبينة من دينه.

وقد كابر هؤلاء المعاندون دلائل الشرع والعقل والواقع، بإنكارهم أن يكون ما يحدث في الكون من كوارث مدمرة وزعازع مزعجة عقوبة على فجور الفجرة، وانتهاك الناس لحرم الله ﷻ، والعجب منهم كيف يتعامون ويتصاممون عن آيات الكتاب الصريحة - وهم يدعون أنهم بالكتاب مؤمنون وبه مستمسكون - أولم تكفهم الآيات التي أوردناها وغيرها مما لم نورده اكتفاء بما أوردنا؟ أوليست نُذُرُها تَصُخُّ الكون، ودلائلها تبهر العقول؟ ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وهم لا يستحيون أن يناقضوا أنفسهم فيما يقولون، فكم ردد الذي تولى كبر هذه الدعوة منهم قصة السفينة العملاقة؛

---

(١) سورة يونس الآية (١٠١).

التي أنشئت في أوائل القرن المنصرم وسميت "التيتانك" أي المارد، وذكر أكثر من مرة أن غرقها ما كان إلا عقوبة ما أصاب أهلها من الغرور والعجب بها، حتى صرح أحد المفتونين بإنجازها زاعما - قاتله الله - أن الله سبحانه غير قادر على إغراقها، ولم تتعقل وسائل الإعلام، بل أخذت تردد هذه المقولة الإلحادية؛ التي قالها بكل تبجح ووقاحة، فما لبثت أن صارت عبرة في التأريخ، وعظة لقوم يؤمنون.

قصة السفينة تيتانك وغرقها

لأجل العبرة والعظة أورد قصة هذه السفينة عسى أن تجد موعظتها سبيلا إلى القلوب القاسية فترققها، وإلى الضمائر الميتة فتحييها، وإلى العقول المظلمة فتنيرها.

أنشئت السفينة العملاقة التي أطلق عليها اسم "تيتانك" أي المارد قبل الحرب العالمية الأولى وسبقتها دعايات إعلامية واسعة ملأت الدنيا ضجيجا، وكانت تعد أكبر سفينة بحرية وأقواها، إذ كانت لها ثلاث مزايا لم تكن لغيرها، وهي كبر حجمها وعدم قابليتها للغرق - حسبما كانوا يتصورون - والفخامة البالغة، وقد كانت أكبر سفينة شهدها العالم إلى ذلك التأريخ، حيث بلغ وزنها من الأطنان ٥٢٣١٠، وطولها ٨٨٢ قدماً، وعرضها ٩٤ قدماً، وكان ارتفاعها يعادل ارتفاع مبنى يتكون من أحد عشر طابقاً.

وقد صممت تصميما غريباً فيه جميع ما أمكن تصوره من الاحتياطات الواقية من غرقها، أو إصابة أحد ممن فيها بما يعرض حياته للخطر، وزودت بطاقم كبير من مهرة الربابنة والملاحين، وكان إبحارها في أول رحلة لها من ميناء "كوين ستون" بانجلترا يوم الأربعاء ٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ الموافق ١٠/ أبريل ١٩١٢م، حيث اجتمعت الجماهير الحاشدة لمشاهدة أول رحلة تنطلق بها في البحر، لتعبر المحيط الأطلسي من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة، وودعت بعزف الموسيقى في وسط هتاف المودعين والمسافرين والمتفرجين.

وكانوا يعدون رحلتها أسعد رحلة في العالم، وقد استدرجهم الله ﷻ بما تمتعوا به على ظهرها من راحة البال، وهدوء الأنفس، وطمأنينة القلوب، وفرحة غامرة استبدت بألبابهم، فأنستهم ذكر الله وبطشه الشديد، وقوته المحيطة بكل شيء، فانطلقت في تعالٍ وتشامخ، يبصرها الرائي فيراها طودا أشم انقض على البحر - كما ينقض الأسد الكاسر على فريسته-

فأخذ يشق عبابه شقا، وجرت تختال بين السفن، كأنها مليك مفدى بين لفيف حاشيته، وكتائب جنده، وجماهير شعبه، والسفن من حولها تخفض لها جناح الذل إكبارا لمقامها، واعترافا بشأنها، وكان ركاب تلك السفن يغتبطون ركابها، ويتخيلون كلا منهم قارون الذي خرج على قومه في زينته، وقد أوتي من الخزائن ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، فكان حال لسان كل منهم يقول: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]، ولم يكن من بينهم ممن أوتوا حظا من العلم النافع، حتى يقول: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾[2]، كما لم يكن فيهم من العقلاء كالذين كانوا مع قارون فقالوا له: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[3].

---

(١) سورة القصص الآية (٧٩).

(٢) سورة القصص الآية (٨٠).

(٣) سورة القصص الآية (٧٤).

وأما ركابها المترفون فقد استبد بهم الغرور واستأثر بهم العجب؛ حتى خيل إلى كل منهم أن السماء ما هي إلا تاج فوديه، وأن الجوزاء لا تعدو أن تكون موطئ نعليه، وقد امتزجت فيهم نشوة الغرور بنشوة الخمور، فكانوا يتخيلون أن الجنة سيقت إليهم بنعيمها المقيم، فهم فيها خالدون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتخيلوا أن البحر ذلل لهم تذليلا، فقد آنسهم بسكينته وتطامنه، وسحرهم نسيمه بلطفه وطيبه، واستمرأوا شهوات أنفسهم، واستطابوا الانغماس فيها، واستبعدوا خشية الله تعالى عن ساحتهم، ومراقبته عن قلوبهم ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

فما كانت إلا أربعة أيام تمتعوا فيها بصفو الحياة ولذة العيش على متن هذه المركبة الفاخرة، وفي هذه الرحلة البهيجة،

---

(١) سورة المجادلة الآية (١٩).

فإذا هم في اليوم الخامس تتوالى عليهم رسائل النذر، التي لم يبالوا بها لإعجابهم بخبرتهم الفائقة واغترارهم بسفينتهم الآمنة؛ التي يتصورونها أنها قادرة على اجتياز جميع أخطار البحر، وتحدي جميع صعابه، وقد كان البحر نفسه يبعث في نفوسهم الثقة والإعجاب بهدوئه وسكونه فيزدادون به غرورا، وبينما السفينة كانت تمخر عباب المحيط غير مكترثة بالنذر؛ إذا بها تقابل بجبل جليدي في مكان لا يتصور وجود مثله، وإنما ساقته إليها إرادة الله النافذة وقدرته القاهرة وقدره المحتوم، وقد أراد الربابنة المهرة تفادي ارتطامها بالجبل بوقف محركاتها وتغيير اتجاهها، ولكن لم يجد ذلك شيئا فإذا هي ترتطم بهذه الكتلة الثلجية ارتطاما لم يكن ملحوظا أو مسموعا بدرجة واحدة، حتى أن بقية أفراد طاقم السفينة كانوا يظنون أنهم ناجحون في تغيير اتجاه السفينة وتجنيبها الاصطدام، ولكن كان هذا الاصطدام الخفيف وحده كافيا لتساقط كتل كبيرة من الثلج على ظهر السفينة.

ومن العجيب أن السفينة لم تهتز بما تساقط عليها منه إلا اهتزازا خفيفا غير ملحوظ، ولكنها انزلقت قليلا إلى الخلف، وبعد عدة دقائق توقفت تماما عن الحركة، ولم يكن هذا الأمر مقلقا لركابها إذ لم يشعروا أن سفينتهم العملاقة اصطدمت بشيء، فلم يكن للتصادم صوت مسموع بدرجة كافية، وكان معظم الركاب في غرفاتهم لاهين، وكان قلة من الرجال مستيقظين شاغلين أنفسهم بتدخين السيجار في الغرفة المخصصة لذلك، وانصرفت نساؤهم أو معظمهن إلى حجر النوم، وكان صوت التصادم خافتا، بحيث عبروا عنه بصور مختلفة حيث قال بعضهم إن السفينة كانت – كما يبدو – كأنها مرت على أرض من المرمر، ومنهم من عبر عنه بأنه كالصوت الصادر عن تمزيق قطعة قماش، وكان أحد الضباط نائما بحجرته فما أحس إلا باهتزاز بسيط أثاره من نومه غير أنه ما لبث أن عاد إليه مرة أخرى.

وقد صعد اثنان من الركاب إلى ظهر السفينة فانطلقت بعدهم مجموعات منهم لتكتشف السبب غير أنهم لم يجدوا ما يقلقهم، فعادوا أدراجهم إلى ما كانوا عليه من اللهو واللعب ومعاقرة الخمر والتسلي بما يزيدهم بعدا عن الله وينسيهم ذكره، ويلهيهم عن التذكر والاعتبار بمصير من كان قبلهم – من أولي البطش والقوة واليسر والترف – مشغولا بلهوه ولعبه وترفه وأنسه عن ذكر الله وقوته الغالبة وإرادته التي لها الحكم النَّفَّاذ.

ولكن ما لبث الفنيون أن اكتشفوا أمرا جللا حيث تحطم جانب من السفينة فتسللت منه المياه وغمرت خمسة أقسام من ستة عشر قسما بأسفلها، كانوا يتصورون أنها لا يمكن أن ينفذ منها الماء قط، على أنه لو غمرت المياه –على سبيل الافتراض– أحد هذه الأقسام فإنه يمكن لقائد السفينة –حسب تصميمها المتميز– أن يحجز المياه داخل ذلك القسم وحده، ويمنعها من الوصول إلى بقية الأقسام، ولكن هذه الحسابات كلها انقلبت

رأسا على عقب، ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[1]، وشاء الله أن تتوقف الغلايات عن العمل تماماً وامتلأت أيضا حجرة البريد بالمياه فطفت فوقها عشرات الخطابات، وكان ذلك نذير شؤم أدركوا من خلاله أنهم مقبلون على كارثة وأن غرق تلك السفينة أمر لا مفر منه.

وقد أمسك الكابتن سميث "قائد السفينة الماهر" عن تفسير ما حدث وإنما حاول أن يتصرف تصرفا عمليا، فأصدر أوامره فوراً بإيقاظ جميع الركاب لإخلاء السفينة وإعداد قوارب النجاة، وأمر بإرسال نداء الإغاثة، غير أن مشكلة أخرى واجهته، إذ عدد الركاب كان ألفين ومائتين وسبعة وعشرين راكبا، ولكن القوارب الموجودة في السفينة لم تكن كافية لنقل ما يزيد على ألف ومائة راكب، ولم يكن ما يجري متصورا في نفوس ركاب السفينة فخرجوا من حجراتهم؛ التي يتصورونها آمنة مطمئنة إلى ظهر السفينة في هدوء وبرود

(١) سورة الحشر الآية (٢).

أعصاب، غير مكترثين بشيء حتى أنهم كانوا ساخرين من الموقف، فكان بعضهم يمرح ويغني ويمزح؛ لأنهم سيطر على فكرهم أن سفينتهم هي سفينة النجاة التي لا ينتاب أهلها الخوف، ولا يهددها الخطر مهما كانت الكوارث البحرية، كيف وهم لا يحسون بما يزعزع أمنهم ويكدر عليهم صفو الحياة، فالبحر هادئٌ كأنه بساط ممهد، وقد آووا إلى جبل يعصمهم من الماء بركوبهم هذه السفينة العملاقة؛ التي يعد تصميمها وإعدادها وتجهيزها بكل ما يضمن لهم السلامة ويهيئ لهم الراحة والرفاهية أكبر إنجاز حققه الإنسان في صناعات البحر.

وخرج بعضهم بثياب النوم واستعدوا لاجتياز المشكلة بسترات النجاة، ثم أخذوا يتدفقون إلى قوارب النجاة تحت تعليمات الكابتن سميث، الذي أمر بإخلاء السفينة من النساء أولا على أن يذهب الرجال بعد ذلك إلى قوارب النجاة إذا ما توفرت لهم، في حين أن بعض الركاب لم يرد الانتقال إلى قوارب النجاة الصغيرة لأنهم يحسون بأنهم في أمن وهم على ذروة ذلك

الطود الشامخ المكين، غير أن منهم من كان مدركاً أن الكارثة الماحقة قد أحاطت بهم، واضطرب الأمر واختلف الرأي.

فمن الركاب من كان متمادياً إلى أن اضطر البحارة إلى إلقاء قوارب النجاة في البحر وهي غير ممتلئة عن آخرها، والوقت كان أضيق من المجادلة في الرأي والبسط في المشورة، وقد وجد ركاب الدرجة الثالثة – وهم الفقراء الذين كانوا يقيمون في الحجرات السفلى من السفينة – أنفسهم آخر من يصل إلى تلكم القوارب، ومنهم من ظل منتظرا ما يأتي به القدر في أسفل السفينة، مع إدراكهم هول المحنة التي أحاطت بهم.

وفي وسط هذا الاضطراب وقد ناخت على رؤوسهم المحنة بثقلها حرص عامل اللاسلكي بالسفينة أن يكرر نداءات الاستغاثة التي وجدت سبيلها إلى بعض السفن التي كانت بعيدة عنها فلم تتمكن من أن تفعل شيئا، بينما كان الأمل يدغدغ أحلامهم في وصول هذه النداءات إلى سفينة أخرى ما كان بينهم وبينها إلا عشرة أميال فقط وهي "كاليفورنيان"، فما

أقربها إلى أن يتحقق بها أملهم المرجو، ولكن القدر الغالب حال دون ذلك، إذ لم يصلها شيء من تلك النداءات المتكررة على رغم قربها منهم، فقد حال القدر المحتوم بين تلك النداءات المتوالية ووصولها إلى عامل اللاسلكي بالسفينية "كاليفورنيان"؛ الذي قام بإغلاق جهازه بعد أن عسعس الليل الداجي، وخيم على من في سفينته النوم بأوزاره، وكان كسائر الركاب بحاجة إلى أن يأخذ قسطا من الراحة ويستسلم للنوم العميق.

أما السفينة العملاقة التي نكبت بما أتاها من حيث لا تحتسب، فمع يأسها من جدوى نداءاتها لم يكن أمامها إلا أن تطلق صواريخ نارية في السماء تصحبها النداءات والهتافات المتكررة، ولكن ذلك لم يؤثر شيئا على من في السفينة "كاليفورنيان"، فشقت طريقها بين عباب المحيط وأخذت تبتعد عن السفينة المنكوبة ومن فيها شيئا فشيئا، وكانوا قد عقدوا عليها آمالهم في النجاة فإذا بهذه الآمال -التي كانت تدغدغ أحلامهم فتسليها في وسط طوفان المحنة- أخذت تتوارى عنهم

كما تتوارى الشمس عن الأنظار إبان الغروب، فيخيم الليل البهيم على الفضاء، وهكذا أطبق ليل القنوط الساجي عليهم وقد احلولك ظلامه فلم يتراء لهم بين أطباقه المطبقة بصيص من أمل، وكانت سفينة "كاليفورنيان" كأنما حملت ضمن حمولتها ما بقي في نفوس المنكوبين من أمل في النجاة فغادرت به إلى غير رجعة.

وفي وسط هذا الجو المشحون بأوزار الهموم والكرب أرادت فرقة الموسيقى المصاحبة للرحلة أن تبدد شيئا من تلك الهموم بعزف موسيقى المرح والسعادة، وقد ظلت لفترة من الوقت ملائمة للجو النفسي لبعض ركاب السفينة الساخرين واللاهين، إلا أنه – مع بروز شبح الموت الزؤام، وإماطته اللثام عن وجهه الكالح المشئوم، وتكشيره عن أنيابه العصل الفتاكة – ما كان صوت الموسيقى مبعثا للسعادة والمرح، ولكنه ضاعف من أثقال الهموم التي ناءت بها حيازيم الركاب جميعا فناءت أيضا بها السفينة فيما ناءت به.

وحاول بعض المترفين أن يظهر في هذا الموقف من التجلد ما عساه يبقى تأريخا له، إذ حرص أن يلقى الموت وهو في أحسن أناقته وأتم زينته، إلا أن ذلك لم يغن عنه من الله شيئا، فهلك مع الهالكين، وما لبثت السفينة أن بدأت مؤخرتها تنزل في الماء، وتبعتها مقدمتها وجناحاها، لتكون أقصر السفن عمرا، وأطولها عبرة، وأشأمها تأريخا، وأحلاها بداية، وأمرها نهاية، حملت للعالم كله من العبرة والذكرى ما هو جدير بإيقاظ العقول النائمة، وتبصير العيون العميَّة، وإحياء الضمائر الميتة، ولكن قل الاعتبار وإن جلت العبرة، وشذ الادّكار وإن عظمت الذكرى.

وقد استجدت أخيرا دراسات قام بها بعض الخبراء تفيد أن غرق السفينة لم يكن بالارتطام بجبل من الجليد – كما قيل – وإنما كان بتحول طبيعة البحر إلى برودة بالغة لم تقو المادة التي صنِّعت منها السفينة على مقاومتها، وذلك ما أدى إلى انشطارها فغرق نصفها فورا وتبعه النصف الباقي بعد ساعتين، ومهما

يكن فإن العبرة من غرقها بالغة على كلا الحالين، فلئن كانت برودة البحر هي سبب إغراقها فلماذا كانت هذه البرودة في خط سيرها خاصة؟! مع أن سفنا أخرى كانت تخوض عباب ذلك البحر، منها "كاليفورنيان" التي لم تكن تبعد عنها إلا بعشرة أميال فقط، ولم تكن بقدر هذه السفينة في قوتها وضخامتها وجودة صنعها، فلماذا اختصت هذه دون غيرها بهذه الكارثة التي أهلكتها وأهلكت ركابها؟!.

ولئن كانت غرقت بارتطامها بجبل الجليد كما كان شائعا من قبل، فلماذا سيق هذا الجبل إليها أو سيقت إليه دون السفن الأخرى؟! مع أن عبورها في خط ملاحي مشهور، ما زالت السفن تعبره منذ قرون خلت، ولم تمن سفينة منها بما منيت به هذه السفينة وركابها من هذه النكبة؛ التي لم يعرف لها مثيل من قبل، أولا يدل هذا أن في سلسلة دراسات هذا الحدث حلقة ضائعة، غابت عن خبراء الغرب فلم يعرفوا السر الحقيقي في وقوع هذه الكارثة.

ولئن ظل غرق هذه السفينة وهلاك ركابها لغزا معمى عند خبراء الغرب؛ إذ لم يجدوا مفتاحا لأقفاله، فإن أرباب الإيمان ليس ذلك عندهم من الألغاز في شيء، فإن تلك نتيجة محتومة لبطر الإنسان عندما يصل به إلى التطاول على الله ﷻ، وفي مصير القوم الظالمين؛ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم مثل حيٌّ ينطبق تمام الانطباق على هذه السفينة وركابها، وقد دعانا القرآن إلى الاعتبار بهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

وقد أراد الله تعالى بهذا الحدث أن يثبت لأولئك الذين أعماهم الغرور عن معرفة الله وبطشه الشديد، فتطاولوا عليه بما شاؤوا من الكلام البذئ، وظنوا أنهم ناجون من عقابه، أن كلمة الذي كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.

---

(١) سورة القصص الآية (٥٨).

وقد بلغ عمى البصيرة بهؤلاء أن سدت عليهم منافذ التفكير فلم يكن للذين تمنوا مكان ركاب السفينة إعجابا بحالهم ما كان للذين تمنوا مكان قارون من الفطنة والنباهة؛ إذ أدركوا خطأهم عندما خسف به وبداره الأرض فقالوا: "ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح القوم الكافرون" أما هؤلاء فعندما خسف بأصحابهم وبسفينتهم البحر ازدادوا عمى وغفلة فلم تجدهم الموعظة شيئاً، على أن هذه الموعظة ظلت تتجدد بما ينشر عنها من قصص وما يبث من أفلام، وعند كل نشر أو بث ينادي لسان حال موعظتها "ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر".

طفل ينجو على مخدة وسفينة تغرق

على العاقل أن يقارن بين هلاك هذه السفينة بركابها في أول رحلة لها، كانوا يتصورونها أسعد رحلة في العالم؛ إذ لم يمض لها إلا أيام معدودة بأصابع اليد الواحدة، وبين نجاة طفل من طوفان أغرق المدن والقرى، وأتى على الألوف المؤلفة من البشر، فابتلعهم في جوفه المنهوم، ولم تكن نجاته بسفينة عملاقة ولا قارب صغير، وإنما كانت بمخدة نوم سبحت به بين الأمواج العاتية، والأعاصير الهوجاء، حتى وصلت به بر الأمان سالما غانما، فإن في كل واحدة من القصتين عبرة بالغة تفتح بصيرة الإنسان لترى يد الله القاهرة تصرف هذا الوجود تصريفا يرتد عنه بصر العقل خاسئا وهو حسير، فلا يجد إلا أن يدرك أن الأسباب والمسببات كلها محكومة بإرادة الله، فلا أثر لسبب على مسببه إنما التأثير لمشيئة الله التي تصرف الوجود بما حواه تصريفا خارجاً عن سنن الأسباب والمسببات.

فعلى هؤلاء الذين يجادلون بدون برهان في هذه الحقائق الماثلة للعيان أن يرجعوا البصر كرتين، وأن لا يسلسوا قيادهم للمكابرة والعناد، فكم أعمى العناد من بصر، وكم أغلق من بصيرة، وكم أردى من سالم، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾[1].

---

(١) سورة هود الآيات (١٠٢-١٠٣).

بيت شعوذة تبتلعه الأرض

الإنسان الفرد وهو يقطع مرحلة هذا العمر بين أحداث الحياة وصروفها، كم يمر به من حدث لو أمعن الفكر فيه لألفاه باعثا على اعتباره، وداعيا إلى استعباره، لما يتجلى فيه من تصريف القدر لصروف الدهر تصريفا ترتد دونه النظرة المادية خاسئة حسيرة.

وقد كان من بين الأحداث التي طرقت سمعي قبل سنين معدودة حدث عجيب وقع بجزيرة زنجبار، في ضواحي مدينتها، ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى كتب لي سفر إليها، فتسنى لي أن أقف على أثر ذلك الحدث لأشاهده بأم عيني.

لقد تواتر إلى سمعي من أخبار الناقلين أن بيتا صغيرا كان متخذا مركزا للشعوذة وغيرها من قبائح الأعمال التي تسخط الله تعالى، وكان الناس يرتادونه من أجل هذا، فإذا بهم في أحد الأيام وفي وضح النهار يحسون برجفة تشمل جوانب

البيت، فخرجوا منه مسرعين، فما كانت إلا لحظات يسيرة حتى ابتلعته الأرض بما فيه، فتغلغل في عمقها قدر أربعين مترا، وغطته طبقة من الماء وظلت مكانه حفرة موحشة، وقد ذهبت إليه بنفسي عندما زرت زنجبار بعد هذا الحدث ورأيت هذا المشهد، وكان هناك مسجد ملاصق لذلك البيت ولم يصب بأي شيء ما عدا بعض الآثار الطفيفة التي لحقت الشاذروان المحيط بجداره، أولا تعدُّ هذه من آيات الله التي فيها عظة لمن كان له قلب؟!.

على أن نفي أن تكون الكوارث الطبيعية و غيرها مما يلم بالناس عقوبة على جرائم ارتكبوها يهون تلك الجرائم في نفوس الناس، وقد يدعوهم الأمن من العقوبات إلى المضي قدما في ممارستها مع أن الله عجَّب عباده من أولئك الذين يتجرأون على ارتكاب الموبقات ولا يخشون أن تفاجئهم عقوبته ليلا أو نهارا حيث قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ

* أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٩٧-٩٩).

(٢) سورة النحل الآيات (٤٥-٤٧).

السنة ومكانتها في التشريع وضلال من جحدها أو استخف بها

- **الأدلة من القرآن.**

إن للسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مكانة عالية في التشريع الإسلامي؛ إذ لا يمكن اتباع نهج الإسلام إلا بالاقتباس من نورها الوقاد، والورد من معينها الدَّفّاق، فأنى للمسلم أن يعبد الله تعالى على النهج الصحيح، ويستمسك من الدين بالعروة الوثقى إن نحّى السنة النبوية جانبا عن منهجه وجانب ما كان عليه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، من فكر نيِّر، ومنهج صحيح، وسلوك مستقيم؟!.

ناهيك أن الله سبحانه أمر بطاعته صلوات الله وسلامه عليه طاعة مطلقة، لم تقيد بحدود، ولم تعلق على شيء، وجعلها من طاعته سبحانه حيث قال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾[1]، ولم يجعل لأي أحد نصيبا من الإيمان إلا بالتحكيم المطلق له عليه أفضل الصلاة والسلام، والتسليم لحكمه من غير وجدان أي حرج منه، إذ قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2].

وجعل أمر الرسول ﷺ كأمره في عدم وجود أي خيار لمؤمن أو مؤمنة فيهما وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾[3].

وجعل حب الله تعالى لا يصدق ولا يتحقق إلا باتباعه عليه أفضل الصلاة والسلام، كما أن حب الله للعبد مرهون أيضا باتباعه وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

---

(١) سورة النساء الآية (٨٠).

(٢) سورة النساء الآية (٦٥).

(٣) سورة الأحزاب الآية (٣٦).

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وأتبع ذلك ما يدل على أن الإعراض عن طاعة الله ورسوله كفر[2] حيث قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[3]، وبين سبحانه أن سنته في إرسال رسله إلى خلقه أن يلزمهم طاعتهم، وذلك في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[4].

كما بين تعالى أن الصدود عما أنزل الله وعن الرسول إنما هو من ديدن المنافقين، إذ قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣٢).

(٢) هو كفر ملة إن كان جحداً لأمر الله ورسوله، وكفر نعمة إن كان تركا من غير جحد.

(٣) سورة آل عمران الآية (٣٢).

(٤) سورة النساء الآية (٦٤).

(٥) سورة النساء الآية (٦١).

وأمر عباده المؤمنين أن يطيعوه، وأن يطيعوا رسوله ﷺ وأولي الأمر منهم، ولكن عند التنازع والاختلاف يجب عليهم الاحتكام إليه وإلى رسوله، وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(١).

ووعد سبحانه على طاعة وطاعة رسوله ﷺ أعظم المثوبة، وذلك بأن يلحق من أطاعهما بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(٢)، وقال أيضا: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

(١) سورة النساء الآية (٥٩).

(٢) سورة النساء الآية (٦٩).

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١)، وقال أيضا: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٢).

كما توعد سبحانه من يعص الله ورسوله بأعظم العقاب حيث قال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٣)، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(٤)، وجعل من سمة المؤمنين والمؤمنات الذين تجب لبعضهم من بعض ولاية الإيمان طاعة الله ورسوله وذلك في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) سورة النساء الآية (١٣).

(٢) سورة النور الآية (٥٢).

(٣) سورة النساء الآية (١٤).

(٤) سورة الجن الآية (٢٣).

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ثم وعد هؤلاء أحسن الوعد بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

وعجّب الله سبحانه من شأن الذين يدعون الإيمان بالله وبرسوله ثم يتولون عن طاعتهما ويعرضون إذا دعوا إلى تحكيمهما وبين أن قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله للحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وذلك في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ *

(١) سورة التوبة الآية (٧١).

(٢) سورة التوبة الآية (٧٢).

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وبين أن طاعته هي مناط الاهتداء وذلك في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[2]، وأتبع ذلك وعده الكريم للذين آمنوا عملوا الصالحات بالاستخلاف والتمكين في الأرض وذلك في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) سورة النور الآيات (٤٧-٥١).

(٢) سورة النور الآية (٥٤).

خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(١)، وأتبع ذلك الأمر بطاعة الرسول مرة أخرى مقرونا بالأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وجعل طاعته ﷺ مناط رحمته، حيث قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وفي هذا ما يدل أن المؤمنين لا يتمكنون من هذا الاستخلاف ولا يتحقق لهم وعده إلا بطاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ المطلقتين، ونبه على أن دعاء الرسول ﷺ يختلف عن دعاء كل من سواه من البشر محذراً من مخالفة أمره في قوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

---

(١) سورة النور الآية (٥٥).

(٢) سورة النور الآية (٥٦).

(٣) سورة النور الآية (٦٣).

ولم يقتصر الأمر على طاعته ﷺ فيما يأمر به وإنما جعل التأسي به ﷺ تصديقا لرجاء الله واليوم الآخر، حيث قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾(١).

وقد أمر الله سبحانه أن نأخذ من الرسول ﷺ ما آتانا وأن ننتهي عما نهانا عنه حيث قال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٢)، ولا يخفى ما فيه من الدلالة بأن طاعته ﷺ في كل أمر ونهي ضرورة محتومة من ضرورات التمسك بالدين، وأن كل مخالفة لأمره مجانفة لتقوى الله ﷻ، ولذلك اختتم الله الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣).

على أن الله سبحانه بين عصمته ﷺ عن اتباع الهوى عصمة مطلقة، وأن كل ما يقوله إنما هو وحي أوحاه الله إليه، إذ

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢١).

(٢) سورة الحشر الآية (٧).

(٣) سورة الحشر الآية (٧).

قال في وصفه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، وهذا يعني أن كل ما يقوله في باب التشريع والأمر والنهي صادر عن وحي الله تعالى، إذ الوحي وحيان؛ وحي ظاهر وهو ما أوحي إليه ﷺ بلفظه ومعناه، ووحي باطن وهو ما أوحي إليه معناه وكان التعبير عنه من قبله ﷺ، والأول هو القرآن، والثاني هو الحديث الشريف.

(١) سورة النجم الآيات (٣-٤).

بشرية الرسول ﷺ

"لا تعني عدم حجية السنة"

إن الذين لم ترق لهم السنة النبوية تعاموا وتصامموا عن كل هذه الآيات البينات، فلم يبصروا نورها ولم يسمعوا نذرها، فأقصوا النبي المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام عن التشريع، وحصروا رسالته في البلاغ فحسب، وزعموا أن كل ما فيها من الأمر بطاعته والتحذير من مخالفته لا يعدو أن يكون فيما يبلغنا إياه عن الله سبحانه من الوحي الظاهر - أي القرآن - دون الوحي الباطن وهو ما تمثل في سنته عليه أفضل الصلاة والسلام.

بل بلغت بهم الوقاحة في التعبير وسوء الأدب في حقه ﷺ أن قالوا فيه بأنه بشر يصيب ويخطئ، وقد ذكرت هذا أمام من تولى كبر هذه الدعوة في آخر جلسة بيني وبينه ولم ينكر ذلك، وكان ذلك بحضور من هو شهيد عليه بهذا.

على أنني بلغني من بعد أنه بنفسه صرح بهذا في الكتاب الذي اشترك في تأليفه مع صاحبيه الذين يشدان من أزره، ويدعوان بدعوته، فقد أخبرني من اطلع عليه - وهو ثقة أمين - أنه ذكر فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾، وقال: "إن هذا فيما يبلغه من القرآن، أما في حديثه بنفسه فهو لا يعدو أن يكون بشرا يخطئ ويصيب"، بل ذكر لي الناقل أن مما قالوه في ذلك الكتاب: "في بعض القضايا هذا ما فهمه الرسول ﷺ من القرآن، ولكننا نفهم خلافه".

ونحن لا ننكر بشرية الرسول ﷺ فإن هذه حقيقة لا يجادل فيها مؤمن متبع للقرآن الذي أنزله الله تعالى، ولكن ليس كل البشر سواء، فبغض النظر عن مقامه ﷺ الرفيع وقدره العالي الذي لا يسامى، فإن من عداه من البشر متفاوتون تفاوتا عجيبا، فتجد بين بشرين من التباين ما يعجز العقل عن تصوره، بحيث يكون أحدهما أسمى من ملائكة السماء، وثانيهما أحط من حشرات الأرض، وتجد أحدهما أطيب نفساً وأقدس سراً من

الملأ الأعلى، بينما الآخر أخبث نفسا وأرجس سريرة من الشياطين، وقد يكون هذا التباين بين بشرين من غير أن يكون أحدهما نال من الله شرف الاصطفاء بالنبوة والرسالة، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى لحمل رسالته إلى خلقه؟، وناهيك بمن أعلى مقامه ورفع قدره فوق مقامات وأقدار جميع الأنبياء والمرسلين، إذ أعلن عن سمو قدره وجلال منزلته بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١)، وهو إعلان رباني يجمد كل فكر عن تصور مثله، وتخرس كل لسان عن مبلغ تعبيره، وينحط كل بيان عن بلوغ شأوه، فإنه تعالى أنبأ فيه عن قدر هذا الرسول الكريم، ولم يقل في حقه "وما أرسلناك إلا رحمة لقومك" أو "وما أرسلناك إلا رحمة للبشر" أو "وما أرسلناك إلا رحمة للثقلين" أو "وما أرسلناك إلا رحمة للأرض ومن عليها".

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

وإنما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، والعالمون: جمع عالم، والعالم جنس يأتي على كل شيء كان علامة ودليلا على وجود الله سبحانه، فيصدق ذلك على كل ذرة من ذرَّات الوجود، ومعنى ذلك أن كل ما في الكون مغمور بهذه الرحمة، ومشمول بهذه النعمة.

أفيتطاول بعد ذلك عاقل إلى من كان مزكى من قبل الله سبحانه بهذا الوصف، ومرفوعا إلى هذا المقام فيسويه بغيره من البشر، أو يسوى به غيره حتى يتسنى لمعترض أن يعترض على أمره، أو نهيه، أو يخرج عن منهجه بدعوى أنه بشر يخطئ ويصيب؟! أوليس هذا هو عين الضلال ولا يكون إلا ممن أعمى الله عن الحق بصيرته، وأقصاه عن التوفيق، ورماه بالخذلان؟ والعياذ بالله.

القرآن يؤكد استقلالية النبي ﷺ بالتشريع

ليست هذه المجادلات التي يجادلونها – بأن ما جاء في القرآن من التأكيد على ضرورة امتثال أمره عليه أفضل الصلاة والسلام، وأن ذلك مناط الفوز بالرحمة، ومعقد السلامة في الدنيا والآخرة، لا يعدو– حسب زعمهم – أن يكون فيما يبلغه من القرآن، دون ما كان من أمره هو أو نهيه – إلا أثرا من آثار هذا الخذلان، والحرمان من ألطاف التوفيق.

فإنهم لو أمعنوا نظرهم لرأوا أن الآيات القرآنية تدل دلالة ظاهرة أن ذلك لا ينحصر فيما بلغه من القرآن، ناهيك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[1]، وما الرد إلى الله إلا بالرد إلى القرآن، ولا الرد إلى الرسول إلا بالرد إلى سنته عليه أفضل الصلاة والسلام، ولو كان الأمر كما زعموا لما كان داع إلى ذكر الرسول مع الله سبحانه، فإن القرآن

(١) سورة النساء الآية (٥٩).

هو من عند الله وحده، ولا أثر فيه للرسول ﷺ إلا أنه مبلغ له عن الله ﷻ، فلو كان المراد به الرجوع إلى القرآن وحده مع إهمال السنة النبوية لما كان معنى لذكر الرسول ﷺ مع الله ﷻ، وأنتم ترون كيف أكد هذا الأمر حيث نيط به الإيمان بالله واليوم الآخر في قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(١)، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾(٢).

فلو كان يكتفَى بالقرآن وحده لكانت دعوتهم إلى ما أنزل الله، ولما دعوا بجانب ذلك إلى الرسول، وإنما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ لأنهم متعبدون بطاعة الله تعالى باتباع ما أنزل من القرآن، وباتباع الرسول ﷺ فيما يتلقونه عنه من سنته، وإن من أقوى الحجج وأقطع الأدلة على هذا أننا مأمورون

---

(١) سورة النساء الآية (٥٩).

(٢) سورة النساء الآية (٦١).

بالتأسي به ﷺ، وقد جعل الله ذلك تصديقا للإيمان بالله واليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(١).

وأنتم تعلمون أن التأسي به ﷺ إنما هو اتباع أفعاله، والتخلق بأخلاقه، وأنى يكون للتأسي هذا القدر في الدين، وهذا الشأن في التشريع، لو لم نكن متعبدين باتباع سنته؟! فإن هديه ﷺ في أفعاله وأخلاقه إنما هو جزء من سنته، على أنه لا خلاف في أن ما أمر به أو نهى عنه بقوله هو آكد في وجوب الاتباع وحرمة العصيان.

وأنتم ترون ما في هذه الآيات وغيرها من أن الأمر بطاعته ﷺ هو أمر مطلق لم يقيد بقيد، ولم يحد بحد، ولم يكن فيه خيار لأحد، وذلك بخلاف ما أمر به من طاعة غيره من البشر، فنجد أن الله أمر بطاعة أولي الأمر من المؤمنين إذ عطفهم على

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢١).

النبي ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولكنه قيد هذه الطاعة برد الأمر إلى الله والرسول ﷺ عند الاختلاف والتنازع، حيث قال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، وأمر سبحانه ببر الوالدين وجعلهما أعظم البشر حقا، غير أنه نهى عن طاعتهما إن دعيا إلى شرك، أو إلى مجانبة سبيل من أناب إليه، حيث قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[1].

أما أمره بطاعة رسوله ﷺ فقد كان أمرا مطلقاً؛ لأنه عليه الصلاة والسلام محفوف بالعصمة لا يتصور أن يصدر منه أمر يجانف أمر الله، فقد جعل الله طاعته طاعة له سبحانه – كما تقدم –، وقرن طاعته بطاعته في مواقف كثيرة ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيرة فيما قضى به أو قضى به رسوله ﷺ، وآذن الناس بأن

---

(١) سورة لقمان الآية (١٥).

دعاءه عليه أفضل الصلاة والسلام ليس كدعاء أحد من الناس سواه، وحذر من مخالفة أمره، وبين أن عاقبة ذلك فتنة أو عذاب أليم.

أمثلة على استقلال السنة بالتشريع

ومع كل هذا فإننا نجد في القرآن الكريم نصا صريحاً في أمر ثبت بسنته ﷺ أنه كان تشريعا إلهيا مع أنه لم يشرع بنص قرآني، فقد قال تعالى في توجه المسلمين إلى بيت المقدس في صلاتهم قبل أن ينزل التشريع القرآني بالتوجه إلى الكعبة البيت الحرام: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(1)، فإنه صريح في كون بيت المقدس قبلة جعلها الله تعالى للمسلمين قبل أن يأمرهم بالتوجه شطر المسجد الحرام.

مع أن التوجه إلى بيت المقدس لم يكن بنص صريح ولا إشارة من القرآن، ولكن كان بأمر الرسول عليه أفضل الصلاة

---

(1) سورة البقرة الآية (١٤٣).

والسلام، ومعنى كونه جعلا إلهيا أنه تشريع منه ﷻ، فإن الجعل إذا أسند إلى الله ﷻ في القرآن:

إما أن يكون جعلا تكوينيا وهو الخلق، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾(1)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(2)، وشواهده من القرآن كثيرة.

وإما أن يكون جعلا تشريعياً وهو ما يرجع إلى أحكام الشرع المعهودة، سواء ما كان منها راجعا إلى خطاب التكليف أو إلى خطاب الوضع، وشاهد ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ﴾(3).

---

(1) سورة النبأ الآية (٦-١٣).

(2) سورة الأعراف الآية (١٨٩).

(3) سورة المائدة الآية (١٠٣).

فإن هذه كلها مخلوقة له تعالى فهي مجعولة له جعلا تكوينيا، وإنما المنفي في الآية هو الجعل التشريعي، وهو مشروعية هذه الأحكام؛ التي اختلقها المشركون من أنفسهم، ولم يأذن بها الله، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(1).

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾(2).

وقوله: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾(3) وعليه يتعين حمل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

---

(1) سورة الأحزاب الآية (٤).

(2) سورة النساء الآية (٣٣).

(3) سورة المائدة الآية (٩٧).

الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1]، فإن الله شرع على لسان رسوله ﷺ اتجاه المسلمين إلى بيت المقدس في صلاتهم ليمتحن إيمانهم، فإن ذلك مما كان يكبر عليهم، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾.

وقد كان سبب مشقة ذلك عليهم أن العرب توارثوا تعظيم البيت الحرام أبا عن جد، وكانوا مع جاهليتهم الجهلاء حريصين على أن لا يشوبوا حرماته المقدسة بشائبة انتهاك، ولذلك كانوا يتورعون عن سفك الدماء، والجناية عن الخصم في حرمه الآمن، ومستقره الأمين، حتى لو وجد أحدهم قاتل أبيه في تلك العراص الطاهرة عفَّ عن محاولة أخذه بالثأر فيها، وكانوا يرونه معقد ارتباطهم، ومركز اجتماعهم، في حجهم واعتمارهم، معظمين لحرماته، ولو كان ذلك على حساب حميتهم المتأصلة في طباعهم.

(١) سورة البقرة الآية (١٤٣).

وما كان هذا التعظيم لحرماته إلا بقية ورثوها من ملة إبراهيم عليه السلام مع ما دنسوها به من رجس الجاهلية، المتمثلة في عبادة الأوثان وتقديسها، وابتداع ما لم يأذن به الله من سنن باطلة ضلت بهم عن سواء السبيل، وقد أسلم من أسلم منهم وحب البيت الحرام ملء مشاعرهم وأحاسيسهم، ممتزج بدمائهم ولحومهم وأعصابهم، فلم يكن من الهين عليهم أن يؤموا في صلاتهم مستقبلين بيتا غيره، ما كان لهم به عهد وما حجوا إليه ولا اعتمروا، وإنما كان ذلك تمحيصا من الله ﷻ لإيمانهم، واختبارا لطاعتهم، مع ما أراده الله لهم من صرفهم عن حياة الجاهلية ومواريثها وطقوسها وعاداتها؛ ليستقبلوا حياة جديدة قائمة على الإيمان بالله واليوم الآخر والطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ، ففرض عليهم التوجه إلى بيت المقدس.

وكانت لله تعالى في طي هذا التشريع حكمة أخرى، وهي أن يجمع الله تعالى لهذه الأمة مقدسات الصالحين من الأمم السابقة، وهدي نبواتها؛ ليتم بذلك عليها نعمته، ويبوئها مبوأ

القيادة والإمامة بين الأمم جميعا، ولما صفت نفوسهم بأثر هذا التمحيص، وانقطعت عن جميع علائق الجاهلية، وتخلت عن جميع مواريثها، ونجحت في مرحلة الامتحان والاختبار التي مرت بها، أعادها الله تعالى مرة أخرى إلى بيته المحرم لتولي وجوهها شطره في صلواتها، كما كانت تتطلع إلى ذلك، ويتطلع إليه نبيها الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ الذي أخبر الله تعالى عن رغبته هذه، ووعده تحقيقها في قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[1].

ومع عدم وجود ما يشير في القرآن الكريم قبل هذا إلى استقبال بيت المقدس أخبر الله تعالى عنه أنه جعل إلهي، ومع هو إلا دليل بين على أن سنته ﷺ ليست هي من تلقاء نفسه، وإنما هي وحي رباني وتشريع إلهي، ليس لمؤمن ولا مؤمنة فيه اختيار، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ

(١) سورة البقرة الآية (١٤٤).

العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع

لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾[1].

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٦).

رشاد خليفة

شبهته والرد عليها

قد رددت بهذا –أي قضية استقبال بيت المقدس– على ذلك الأفَّاك الأثيم والكفار العنيد رشاد خليفة، في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر، عندما زعم أن اتجاه النبي ﷺ والمؤمنين بعد الهجرة إلى بيت المقدس ما كان إلا اجتهادا سياسيا منه ﷺ؛ لتأليف أهل الكتاب، ولم يقره الله تعالى عليه، فلذلك أنزل قرآنا بخلافه.

وقال: أتحدى من يأتيني بدليل على أن ذلك كان تشريعاً ربانيا من عند الله ﷻ.

فنقضت بهتانه بما ذكرته ولما استدللت بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، التفت الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي

إلى العلامة الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وقال له: "لقد أيقظ منا نائما".

وقال لي الشيخ أحمد حمَّاني؛ الذي كان آنذاك رأيسا للمجلس الإسلامي الأعلى بدولة الجزائر: "لقد رجمت الشيطان بالآية فاحترق، والحمد لله".

وقد كان اللعين – قاتله الله تعالى – يومي –بزعمه أن الله تعالى لم يقرَّ النبي ﷺ على جعله بيت المقدس قبلة له وللمؤمنين- إلى تخطئته عليه أفضل الصلاة والسلام فيما زعمه أنه كان منه اجتهادا سياسيا، وبهذا يتبين أن هؤلاء الذين يجرؤون على تخطئته عليه أفضل الصلاة والسلام إنما اتخذوا من ذلك اللعين إماما، ولهم فيه أسوة سيئة، كما أنهم في إنكارهم "النسخ" رأسا مقتدون به؛ لأنه زعم في ذلك الملتقى أيضاً أن دعوى النسخ لبعض الأدلة إنما هي أكذوبة، مع ثبوت الدلالة بنسخ بعض الأحكام السابقة بنصوص من القرآن، ومن بينها نسخ التوجه إلى بيت المقدس؛ الذي كان قبلة للمسلمين بجعل

من الله، ونحن – وإن كنا ننكر على من بالغوا في حمل كثير من الأدلة الشرعية ومن بينها نصوص القرآن على أنها منسوخة – لسنا مع القائلين بإنكار النسخ رأسا، لمصادمة ذلك للأدلة الصريحة.

وإن من المغالطة البينة للحقيقة زعم ذلك الأفاك الأثيم بأن النبي ﷺ هو الذي اجتهد اجتهادا سياسيا، فجعل بيت المقدس قبلة له وللمسلمين مع الأدلة القرآنية الصريحة أنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان يتطلع إلى إذن من الله تعالى بأن يعود إلى استقبال البيت الحرام، فلذلك كان يقلب وجهه في السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما يأذن له بذلك من الوحي، وقد وعده الله أن يوليه قبلة يرضاها، فما أسخف هذه الدعوى الكاذبة، وإن كان أسخف منها قائلها.

وإني لأعجب من هؤلاء المنكرين للتشريع بالسنة كيف يناقضون أنفسهم بأعمالهم؟! فتراهم يطبقون في بعض الأمور

غير ما يزعمون، كقصرهم الصلاة في السفر من غير خوف، مع أن القصر لم يثبت في القرآن وإنما ثبت بسنة الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، ولو جئنا إلى ظاهر القرآن لوجدنا ما يدل على أن القصر في السفر مشروط بوجود الخوف، كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، ولست أدري هل يتمنى هؤلاء على آبائهم أنهم لم يختنوهم لعدم وجود الختان في القرآن، وما هو موقفهم من ختان أبنائهم؟!.

(١) سورة النساء الآية (١٠١).

المدى الذي وصل إليه العقلانيون

الزعم بأن السنة تأتي من خلال التطبيق والعمل:

أما ما يردده من تولى كبر أمرهم هذا من أن السنة لا تحتاج إلى بحث وطلب، وإنما هي تأتي إلى الناس بنفسها من خلال التطبيق والعمل، فذلك إن دل على شيء لا يدل إلا على الحماقة التي يربأُ جميع الحمقى بنفوسهم عنها، فإن تطبيق الناس ليس على وتيرة واحدة، وقد يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة، فترى الناس يستحسنون تارة عملا من الأعمال ثم يستقبحونه، وبالعكس، وقد يختلف ذلك باختلاف البيئات، فهل لكل بيئة سنتها، أو لكل زمان سنته؟!.

والعجب ممن يرى اتباع سنة عامة البشر مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ويقول: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ

(١) سورة يوسف الآية (١٠٣).

﴿إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾(١)، ولا يرى اتباع سنة نبينا ﷺ الذي فرض الله تعالى علينا اتباعه، وجعله معيار التفرقة بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، وجعل تأسينا به مصداق الإيمان بالله واليوم الآخر، فما هذا التناقض العجيب وأي عقل يستسيغ ذلك؟!.

كلمة حق أريد بها باطل:

ومن عجيب ما سمعته عنهم ما حدثني به أحد الثقات عن أحد أركانهم أنه قال: لو سمعت رسول الله ﷺ يخبر بحقيقة غيبية، ولم تكن مذكورة في القرآن لم أكن مكلفا أن أصدقه فيها، فأي ضلال للعقول أبعد من هذا الضلال، من أنت أيها المغرور حتى تتطاول على مقام صاحب الرسالة بهذه الوقاحة، وسوء الأدب؟ وليت شعري؛ هل أوحي إليك بالقرآن فتلقيته بنفسك

(١) سورة الأنعام الآية (١١٦).

أو أنه جاءك من طريقه ﷺ؟!، ولئن كنت لا تصدقه فيما يخبرك به كيف تكون مصدقا للقرآن، ولم يأتك إلا من طريقه؟!.

وكثيرا ما يتذرعون في رد أخبار النبي ﷺ الغيبية بدعوى أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وما هذه إلا كلمة حق أريد بها باطل، فالنبي ﷺ لا ريب أنه لم يكن يعلم الغيب الذي لم يطلعه الله تعالى عليه، فهو من هذه الناحية كسائر البشر، ولكن علينا أن لا ننسى أنه رسول يوحى إليه، وقد استثنى الله ﷻ رسله إذ يظهرهم على ما شاء من غيبه الذي لم يظهر عليه غيرهم، كما نص عليه قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾(١).

وقد حكى الله في كتابه عن النبيين من قبل أنهم اطلعوا على ما أظهرهم الله عليه من غيب، فقد حكى عن يوسف عليه السلام

(١) سورة الجن الآيات (٢٦-٢٧).

قوله لصاحبي السجن: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[1].

وحكى عن المسيح عليه السلام قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]، فكيف يقصر مقام النبي ﷺ عن مقام هؤلاء؟!.

على أن الرسالة كلها إنما هي صلة بين الشهادة والغيب، وقد أمرنا أول ما أمرنا بالإيمان بالغيب، وهل يأتينا ذلك الغيب إلا من طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام؟ على أنه من البدهيات أن رد السنة إنما هو رد للقرآن لأن القرآن هو أصلها، فإنما أمرنا باتباعه ﷺ وطاعته بدلائل القرآن، فأنى يكون أحدا متبعا للقرآن وقد أعرض عما دعا إليه من اتباعه عليه أفضل الصلاة والسلام؟ .

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٩).

تأييد الدلائل للسنة النبوية:

كم من دليل بيِّنٍ وحجة باهرة بها كشف عنه الزمن من حقائق أخبر بها رسول الله ﷺ، لم يكن يتصورها ذو بال، وإذا بها بعد هذه القرون المتطاولة وفي عهد الكشف العلمي تصبح من مسلمات ذوي العقول من مسلم وكافر، وحسبي أن أذكر هنا ثلاثة أمثلة يعود أحدها: إلى ما سيظهر من آثار الحضارة والمدنية في البادية، وثانيها: إلى ما سيكشف عنه الطب مما لم يكن متصورا عند أحد، وثالثها: إلى نتائج ارتكاب الفحشاء التي لم تكن متصورة من قبل وإليكها بحسب ترتيبها:

أولها: ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الذي يحكي سؤال جبريل لرسول الله ﷺ وفيه أنه سأله عن

الساعة وأماراتها فقال له: "أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان"(١).

فهذا الحديث ليس بحاجة إلى تعليق، فإن لم تكن معجزة النبوة فيه بادية للعيان فليس يصح في الأذهان شيء، فأنى لأحد أن ينكر حقيقة نشاهدها الآن ماثلة للعيان، فكم تحولت أرض ما كانت بها مساكن إلا مضارب خيام البادية إلى مدن تفوق أعظم حواضر العالم عمرانا ومدنية، بحيث أصبحت مبانيها في ارتفاعها كأنما هي تناغي النجوم وتناجيها، أو كما يعبر عنها بناطحات السحاب، وأصبح أهلها يتفاخرون بها في المجالس، ويتباهون بطولها وتطاولها، فكانت صورة حيَّة لمعنى حديث رسول الله ﷺ الذي كان فيه من دقة التعبير – حيث صور ذلك

(١) رواه مسلم ج١ص٢٨، ومسند أحمد ج١ص٥١، صحيح ابن حبان ج١ص٣٨٩، سنن أبي داود ج٢ص٦٣٥، وسنن ابن ماجة ج١ص٢٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠ص٢٠٣، النسائي ج٨ص٩٧، والطبراني في الأوسط ج٥ص٢٣٧، والبزار ج٥ص٣٦٨.

بقوله: "يتطاولون" – ما يحار منه العقل، فماذا بقي لمنكري هذه الحقائق إلا المكابرة والعناد؟.

ثانيها: ما رواه مسلم في صحيحه قال: "حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى وَمُحَمَّدُ بن بَشَّارٍ واللفظ لابن الْمُثَنَّى قالا حدثنا محمد بن جَعْفَرٍ حدثنا شُعْبَةُ عن سِمَاكِ بن حَرْبٍ عن عَلْقَمَةَ بن وَائِلٍ عن أبيه وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّ طَارِقَ بن سُوَيْدٍ الْجُعْفِيَّ سَأَلَ النبي ﷺ عن الْخَمْرِ فَنَهَاهُ أو كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا فقال إنما أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ فقال إنه ليس بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ"(١).

وروى أحمد في مسنده: "ثنا أبو كَامِلٍ ثنا حَمَّادٌ بن سِمَاكُ بن حَرْبٍ عن عَلْقَمَةَ بن وَائِلٍ عن طَارِقِ بن سُوَيْدٍ الحضرمي قال: قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ أن بِأَرْضِنَا أَعْنَاباً نَعْصِرُهَا أَفَنَشْرَبُ منها؟ قال: لاَ، فَرَاجَعْتُهُ، فقال: لاَ ، ثُمَّ رَاجَعْتُهُ، فقال: لاَ،

(١) ورواه أحمد برقم ١٨٨٠، ورقم ٢٧٢٨١، وابن حبان برقم ٦٠٦٥، وعبدالرزاق برقم ١٧١٠٠، ومصنف ابن ابي شيبة برقم ٢٣٤٩١.

فقلت: إِنَّا نستشفي بها لِلْمَرِيضِ، قال: إنه ليس بِشِفَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ"[1].

وروى أبو داود في سننه قال: "حدثنا هَنَّادُ بن السري ثنا عَبْدَةُ عن مُحَمَّدٍ يَعْنِي بن إسحاق عن يَزِيدَ بن أبي حَبِيبٍ عن مَرْثَدِ بن عبد اللهَّ الْيَزَنِيِّ عن دَيْلَمٍ الْحِمْيَرِيِّ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ ، فقلت: يا رَسُولَ اللهَّ إِنَّا بِأَرْضٍ بَارِدَةٍ نُعَالِجُ فيها عَمَلًا شَدِيدًا، وَإِنَّا نَتَّخِذُ شَرَابًا من هذا الْقَمْحِ نَتَقَوَّى بِهِ على أَعْمَالِنَا وَعَلَى بَرْدِ بِلَادِنَا، قال: هل يُسْكِرُ، قلتِ: نعم، قال: فَاجْتَنِبُوهُ، قال قلت: فإن الناس غَيْرُ تَارِكِيهِ، قال: فَإِنْ لم يَتْرُكُوهُ فَقَاتِلُوهُمْ"[2].

(١) أخرجه ابن ماجه ٢١١٥٨، وابن حبان ٤٢٣٢، و الطبراني ٨٣٢٣، والطيالسي ١٣٧، والدارمي ٢١٥٤.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٣٢، ٤٢٣٢، ٤٢٣٢، والبيهقي ٨٢٩٢، ٨٢٩٢، والطبراني ٤٢٢٧، ٤٢٢٨، ٤٢٢٨، وابن أبي شيبة ٥٦٦، ١٨٣٣١، و النسائي ٣٢٣٤ .

وروى ابن حبان في صحيحه قال: "أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْمُثَنَّى قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ مُخَارِقٍ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: اشْتَكَتِ ابْنَةٌ لِي فَنَبَذْتُ لَهَا فِي كُوزٍ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَغْلِي، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَتِي اشْتَكَتْ فَنَبَذْنَا لَهَا هَذَا، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللهَّ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِي حَرَامٍ"[1].

فترى النبي ﷺ في هذا الأحاديث الشريفة يصدع بحقيقة لم تكن متقبلة في عقول الناس لما ألفوه من التداوي بالخمر، واعتقاد أن فيها منافع صحية، إذ كان هذا مما شاع عند الأطباء في عهد النبوة وقبلها، وهو مما ورثوه من الطب اليوناني، ثم جاء الأطباء الإسلاميون وساروا في هذا الاتجاه نفسه، فنجد أبا بكر الرازي – الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع – يقرر أن في الشراب المسكر منافع

(١) أخرجه البيهقي ١٠٥، و الطبراني ٢٣٣٢٧.

منها إنه يسخن البدن، ويعين على هضم الطعام في المعدة وسرعة تنفيذه إلى الكبد، وجودة هضمه هناك، وتنفيذه إلى العروق، وسائر البدن، ويسكن العطش إذا مزج بالماء، ويخصب البدن متى شرب على أغذية كثيرة الاغتذاء، ويحسن اللون ويدفع الفضول جميعا، ولذلك فهو عون عظيم على حفظ الصحة إذا شرب على ما ينبغي، ثم دخل إلى التفاصيل التي لا داعي إلى ذكرها[(1)].

وكذلك ابن سينا الطبيب المشهور - الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين – في كتاب "القانون" وأبو محمد البيطار في كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"[(2)].

---

(١) ينظر الإعجاز العلمي في أحاديث التداوي بالخمر، للدكتور محمد علي البار، ص٢٤-٢٩، دار القلم، دمشق – الدار الشامية، بيروت.

(٢) أسرف الأطباء في وصف الخمر بغير وصفها الصحيح، إذ نسبوا إليها منافع ليست منها في شيء، وتجاهلوا مضارها العظيمة وإليك أمثلة من ذلك :

---

١) قال ابن سينا في القانون ج١ ص٢٣٩:

" وأما الشراب فالأبيض الرقيق أوفق للمحرورين ولا يصدع بل ربما رطب فيخفف الصداع الكائن من التهاب المعدة ويقوم المروق بالعسل والخبز مقامه خصوصاً إذا مزج قبل الشرب بساعتين.

وأما الشراب الغليظ الحلو فهو أوفق لمن يريد السمن والقوة، وليكن من تسديده على حذر، والعتيق الأحمر أوفق لصاحب المزاج البارد البلغمي وتناول الشراب على كل طعام من الأطعمة رديء على ما فزعنا من إعطاء علة ذلك فلا يشربن إلا بعد انهضامه وانحداره. وأما الطعام الرديء الكيموس فشرب الشراب عليه وقت تناوله وبعد انهضامه رديء لأنه ينفذ الكيموس الرديء إلى أقاصي البدن وكذلك على الفواكه وخصوصاً البطيخ والابتداء بالصغار من الأقداح أولى من الكبار ولكن إن شرب على الطعام قدحين أو ثلاثة كان غير ضار للمعتاد وكذلك عقيب الفصد للصحيح.

والشراب ينفع الممرورين بإدرار المرة والمرطوبين بإنضاج الرطوبة وكلما زادت عطريته وزاد طيبه وطاب طعمه فهو أوفق والشراب نعم المنفذ للغذاء في جميع البدن وهو يقطع البلغم ويحلله ويخرج الصفراء في البول وغيره ويزلق السوداء فيخرج بسهولة ويقمع عاديتها بالمضادة ويحل كل منعقد من غير تسخين كثير غريب. وسنذكر أصنافه في موضعه ومن كان قوي الدماغ لم يسكر بسرعة ولم يقبل دماغه الأبخرة المتراقية الرديئة ولم يصل إليه من الشراب إلا حرارته الملائمة فيصفو ذهنه ما لا يصفو بمثله أذهان أخرى ومن كان بالخلاف كان بالخلاف ومن كان في صدره

وهن يضيق في الشتاء نفسه فلا يقدر أن يستكثر من الشراب شيئاً ومن أراد أن يسكتثر من الشراب فلا يمتلئن من الطعام وليجعل في طعامه ما يدر فإن عرض امتلاء من طعام وشراب فليقف وليشرب ماء العسل ثم يقذف أيضاً ثم يغسل فمه بخل وعسل ووجهه بماء بارد . ومن تأذى من الشراب بسخونة البدن وحمى الكبد فليجعل غذاءه مثل الحصرمية ونحوها ونقله ماء الرمان وحماض الأترج ومن تأذى منه في ناحية رأسه قلّل وشرب الممزوج المروق وينقل عليه بمثل السفرجل وإن تأذّى في معدته بحرارتها فليتناول حب الآس المحمص وليمص شيئاً من أقراص الكافور وما فيه قبض وحموضة وإن كان تأذيه لبرودتها ينقل بالسعد وبالقرنفل وقشر الأترج".

ثم قال: "واعلم أن الشراب العتيق في حكم الدواء ليس في حكم الغذاء وإن الشراب الحديث ضار بالكبد ومؤد إلى القيام الكبدي لنفخه وإسهاله. واعلم أن خير الشراب هو المعتدل بين العتيق والحديث الصافي الأبيض إلى الحمرة الطيب الرائحة المعتدل الطعم لا حامض ولا حلو والشراب الجيد المعروف بالمغسول وهو أن يتخذ ثلاثة أجزاء من السعتر وجزءاً من الماء ويغلي حتى يذهب ثلثه ومن أصابه من شرب الشراب لذع مصّ بعده الرمان والماء البارد وشراب الإفسنتين من الغد واستعمل الحمام وقد تناول شيئاً يسيراً. واعلم أن الممزوج يرخّي المعدة ويرطّبها وهو يسكر أسرع لتنفيذ المائية ولكن ذلك يجلو البشرة ويصفي القوى النفسانية وليجتنب العاقل تناول الشراب على الريق أو قبل استيفاء الأعضاء من الماء في المرطوبين أو عقيب حركة مفرطة فإن هذين ضاران بالدماغ والعصب ويوقعان في التشنّج واختلاط العقل أو في مرض أو فضل حار. والسكر المتواتر رديء جداً يفسد مزاج الكبد

والدماغ ويضعف العصب ويورث أمراض العصب والسكتة والموت فجأة. والشراب الكثير يستحيل صفراء رديئة في بعض المعد وخلا حاذقاً في بعض المعد وضررهما جميعاً عظيم. وقد رأى بعضهم أن السكر إذا وقع في الشهر مرة أو مرتين نفع بما يخفف من القوى النفسانية ويريح بدر البول والعرق ويحلل الفضول سيما من المعدة.

وليعلم أن غالب ضرر الشراب إنما هو بالدماغ فلا يشربنه ضعيف الدماغ إلا قليلاً وممزوجاً والصواب لمن يمتلىء من الشراب أن يبادر إلى القيء فإن سهل وإلا شرب عليه ماء كثيراً وحده أو مع عسل ثم استحم بعد القيء بالأبزن وتمرخ بدهن كثير وينام. والصبيان شربهم الشراب كزيادة نار على نار في حطب ضعيف وما احتمل الشيخ فاسقه وعدل الشبان فيه.

والأولى للشبان أن يشربوا الشراب العتيق ممزوجاً بماء الرمان أو ممزوجاً بالماء البارد كي يبعد عن الضرر ولا يحترق مزاجهم والبلد البارد يحتمل الشرب فيه والحار لا يحتمله ومن أراد الامتلاء من الشراب فلا يمتلىء من الطعام ولا يأكل الحلو بل يتحسى من الأسفيذاج الدسم ويتناول ثريدة دسمة ولحماً دسماً مجزعاً واعتدل ولم يتعب ويتنقل باللوز والعدس المفلحين وكامخ الكبر وإن أكل الكرنبية وزيتون الماء ونحوه نفع وأعان على الشرب وكذلك جميع ما يجفف البخار مثل بزر الكرنب النبطي ..."إلخ .

٢) قال المالقي ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية, ج١ ص٢٤٩ -حسب ترتيب كتب برنامج الشاملة -:

الخمير يتخذ من الدقيق والزيت إذا عدم أصله وذلك أن يعجن الدقيق بقليل زيت وماء ويترك ليلة فإنه ينضج من الغد خميراً قاطعاً والخمير المعتدل إذا أنقع في الماء وصفي بعد ساعتين ووضع فيه دانق طباشير وقيراط زعفران ودانق سكر في مقدار ثلاث أواق من الماء فإنه يسكن الخمار ويقطع العطش وإذا حل الخمير بالماء وخلط به مثل ربعه دهن بنفسج وتغرغر به نفع من أورام الحلق الباطنة، وإذا حل بالماء وصنع منه حساء وقطر فيه قطرات خل يسيرة وشراب أمسك البطن وعقل إسهالها .

ثم قال: خمر ديسقوريدوس في الخامسة: أما الأشربة العتيقة فإنها تضر بالأعصاب والحواس إلا أنها لذيذة الطعم، ولذلك ينبغي أن يمتنع منها إذا كان بعض الأعضاء مريضاً وأما في وقت الصحة فقد يشرب منها الشيء اليسير وهو مائي فلا يضر، وأما الشراب الذي قد عتق جداً إذا كان أبيض رقيقاً فهو يدر البول إلا أنه يصدع الرأس وإذا أكثر من شربه أضر المعدة وأما الشراب الحديث فإنه نافخ عسر الانهضام يري أحلاماً رديئة ويدر البول وأما الشراب الذي بين الحديث والقديم فإنه قد أفلت من عيوبهما ولذلك ينبغي أن يختار شربه في وقت الصحة والمرض وأما الشراب الأبيض فهو رقيق سهلَ النفوذ جيد للمعدة وأجود الشراب الخوصي بين العتيق والحديث وأما مقدار ما ينبغي أن يشرب منه فينبغي أن يكون بمقدار زمان السنة والسن والعادة وقدر قوة الشراب وينبغي أن لا يشرب الشراب العتيق على العطش وينبغي أن يبل به الطعام بالمقدار الذي يحتاج إليه وأما السكر فكله ضار ولا سيما إذا أدمن وإذا ألح السكر على العصب ضعف واسترخى وإذا كثر من الشراب وأدمن لم يؤمن الأمراض الحادة.

ومن أجود الأشياء أن يأخذ الإنسان من الشراب بقدر معتدل فيما بين الأيام ولا سيما أن جعل شرابه في تلك الأيام الباقية الماء وذلك أنه يحلل وينفذ وينقص الفضول التي يظهر خروجها للحس والتي لا يظهر، وينبغي بعد الشراب أن يشرب الماء وذلك أنه يسكن صولة الشراب ويكسر من عاديته وأما الشراب الأسود فإنه غليظ عسر الإنهضام يكسر ويكثر اللحم، وأما الشراب الأحمر فإنه متوسط بين الأبيض والأسود ولذلك صارت قوته متوسطة بين قوتيهما وأما الشراب الأبيض فإنه أوفق لشاربه في وقت الصحة والمرض والأشربة أيضاً تختلف على حسب اختلاف طعومها فإن الشراب الحلو غليظ عسر التحلل نافخ للمعدة يسهل البطن مثل العصير إلا أن قوته على الإستكنان أضعف وهو موافق للمثانة والكلى، وأما الشراب الذي فيه قبض فإنه أشد إدراراً للبول ويصدع ويسكر، وأما الشراب العفص فإنه أشد موافقة لإيصال الغذاء وهو يعقل البطن ويقطع سيلان المواد، وأما الشراب اللين فمضرته للعصب أقل وأكثر إدراراً للبول.

وأما الشراب الذي يعمل بماء البحر فإنه رديء للمعدة معطش ويضر بالعصب ويسهل البطن ولا يوافق الناقهين من المرض، وأما الشراب الحلو المتخذ من العنب المسمى طريطيقوس وهو العنب الذي مسته الشمس وهو الذي يقال له قريصا بروطرس ويقال له قراسيوس والحلو المتخذ من عصير العنب إذا طبخ فإن الأسود منه الذي يقال له مالسلقون غليظ كثير الإغذاء والأبيض منه أرق من الأسود والذي لونه متوسط فيما بين السواد والبياض قوّته متوسطة بين قوّة الأبيض والأسود ، وقوّة هذه الأصناف قابضة منهضة للقوة الساقطة وكل واحد منها إذا شرب مع الزيت

وتقيىء كان صالحاً للأدوية القتالة التي منها الدواء الذي يقال له ميقونيون والذي يقال له قونيون وهو الشوكران والذي يقال له سقونيون والذي يقال له طقسيقون واللين المتحيز في المعدة والمثانة والكلى التي يوجد فيها حرقة وفيها قرحة وكل هذه الأصناف تولد النفخ وهي رديئة للمعدة، والأسود منها خاصة موافق لمن به إسهال البطن وأما الأبيض فإنه أقرب إلى تليين البطن من الصنفين الآخرين، وأما الشراب الذي يطرح فيه الجبسين فإنه يضر بالعصب ويصدع ويعرض منه تلهب في البدن وهو غير موافق للمثانة وأصلح للأدوية القتالة من غيره من الأصناف، وأما الشراب الذي يلقى فيه زفت أوراتينج فإنه مسخن يهضم الطعام غير موافق لمن به نفث الدم.

وأما الشراب الذي يقال له بارساطيس وهو الذي فيه خلط من الشراب الحلو الذي يقال له إقساما فإنه يرفع بخاراً كثيراً إلى الرأس ويسكن وينفخ البطن وهو عسر التحلل رديء للمعدة، وأما الشراب الذي يظن أنه يفوق أشربة البلاد التي يقال لها أنطاكيا وهو يقال له إقالا فالاوالس فإنه إذا عتق جداً واستعمل هضم الطعام وقوى الروح وشد البطن وكان صالحاً للمعدة غير موافق للمثانة ومن به غشاوة وليس يصلح لأن يستكثر منه، وأما الشراب الذي يقال له النابوس فإنه أغلظ من قلاربيوس وفيه حلاوة وينفخ المعدة ويلين البطن ويعين على الهضم مثل ما يعين عليه فالارينوس ومضرته للعصب يسيرة، وإذا عتق كان فيه قبض على حال، وأما الشراب الذي يقال له ليوس فإنه حلو وأغلظ من البابوس وإذا استعمل كثر اللحم وحسن اللون وكان موافقا للهضم.

وأما الشراب الذي يقال نيبوريطقس فإنه شديد القبض ولذلك يقطع سيلان الرطوبات عن المعدة والأمعاء ومضرته للرأس يسيرة للطافته وإذا عتق كان صالحاً للمعدة لذيذ الطعم ، وأما الشراب الذي يقال أروريانوس والشراب الذي يقال له مابوطهوس المتخذان بالبلاد التي يقال لها صقلية فإنهما غليظان متساويان في الغلظ وهما يسيرا القبض ويضعفان سريعاً ومضرتها للعصب يسيرة للينهما، وأما الشراب الذي يقال له توبوطا أفرس فإنه يتخذ بالموضع من صقلية الذي يقال له أدرنا وهو طيب الرائحة ولذلك يمكن أن يشرب منه مقدار كثير ولا يسكر ويعرض منه خمار طويل المدة.

وأما الذي يقال له أسطريقون فإنه شبيه بالشراب الذي يقال له قوانواطراش إلا أنه أكثر توليداً للفضول منه، وأما الشراب الذي يقال له حنوس فإنه ألين من سائر الأشربة التي ذكرناها وهو سلس مغذ ضعيف السكر يقطع سيلان الفضول والرطوبات وينتفع به في أخلاط الإكحال، وأما الشراب الذي يقال له استرس فإنه سريع الإنتشار في البدن وهو أضعف من الشراب الذي يقال له حيوس ويلين البطن والشراب المتخذ بالمدينة التي يقال لها أماسيلس فإن قوته مثل قوة الشراب الذي يقال له لبستلولس ويقال له يوعاليطس.

وأما الشراب الذي يقال له قوقس والشراب الذي يقال له قلارومانيوس فإنهما لما يكثر فيهما من ماء البحر صارا سريعي الفساد نافخين مسهلين للبطن وهما رديئان للعصب والشراب كله بالجملة إذا كان خالصاً ليس يخالطه شيء وكان فيه قبض فإنه يسرع الذهاب في البدن ويسرع قوة الشهوة ويسخن ويقوي المعدة ويغذو البدن

وينوم ويزيد في قوة البدن ويحسن اللون، وإذا شرب منه مقدار صالح نفع من سقي الشوكران والكزبرة والأفيون والمرتك ومن أكل القطر فتأذى به ومن وجميع الأدوية التي تقتل بالبرد وينفع أيضاً من لسعة الهوام التي تقتل سمومها بالبرد والذي ترخي بسمها المعدة، والشراب أيضاً ينفع من النفخة المزمنة ومن يجد لذعاً في معدته وتحت الشراسيف ومن تسترخي معدته لضعفها ومن الرطوبات التي تسيل إلى الأمعاء والبطن ومن أفرط به العرق والتحلل ولا سيما ما كان من الشراب أبيض عتيقاً طيب الرائحة.

وأما الشراب العتيق الحلو فهو موافق للعلل التي تكون في المثانة والكلى وهو أيضاً ينفع الخراجات والأورام إذا غمس فيه صوف غير مغسول ووضع عليه وإذا صب أيضاً على القروح الخبيثة والأكل والقروح التي تسيل إليها الفضول نفعها، وأما شراب الحصرم فإنه يتخذ على هذه الصفة يؤخذ العنب ولم يستحكم نضجه بعد وفيه مزازة فيجعل في الشمس ثلاثة أيام أو أربعة حتى يذبل ثم يعصر ويلقى في الدنان ويشمس وقوة هذا الشراب قابضة وهو مقو للمعدة المسترخية والمرأة الوحماء ولمن به القولنج الذي يعرض فيه قيء الرجيع ويقال إنه ينفع في الأمراض التي تعرض في الوباء وهذا الشراب يحتاج إلى أن يعتق سنين كثيرة فإن لم يفعل به ذلك لم يكن شروباً وأما الشراب الذي يقال له المائي ويقال له أيضاً الشروب فإنه يتخذ على هذه الصفة تأخذ من شجر العنب مقدار ما يعصر منه ثلاثون جرة فتلقى عليه ثلاث جرار ماء ويداس بالأرجل ويعصر ويطبخ حتى يذهب الثلثان ويلقى على كل كوز مما بقي منه

قسطان من ملح وإذا جاءت عليه سنة نقل إلى الخوابي واستعمل بعد سنة لأنه لا يفسد سريعاً.

وهذا الشراب يحتاج إليه من يخاف عليه ضرر الشراب عندما تدعوه إليه الشهوة وهو أيضاً يوافق الناقه من المرض وماء الشراب الذي يعرف بالضعيف فإن قوّته شبيهة بقوّة الشراب الذي يعرف بالمائي ويتخذ على هذه الصفة يؤخذ من العصير شيء ومن الماء مثله فيطبخان بنار لينة حتى يذهب الثلث ثم يبرد ويصب في الدنان بعد أن يعتق وقد يتخذه قوم على هذه الصفة: يأخذون من ماء البحر وماء المطر وعسل وعصير العنب بمقادير متساوية فيخلطونها ويلقون ذلك في الدنان ويضعونها في الشمس أربعين يوماً ويستعملونه بعد سنة. ثم نقل عن الرازي أنه قال في "كتاب دفع مضار الأغذية": القول في منافع الشراب المسكر ومضاره وصنوفه وما الأوفق منه في حال دون حال ودفع المضار الحادثة عنه والأعراض اللازمة له واللاحقة له فلنقل الآن في الشراب المسكر وأنواعه ومنافعه ودفع مضاره فنقول: الشراب المسكر يسخن البدن ويعين على هضم الطعام في المعدة وسرعة تنفيذه إلى الكبد وجودة هضمه هناك وتنفيذه من ثم إلى العروق وسائر البدن ويسكن العطش إذا مزج بالماء ومن أراد به تسكين العطش لا غير فليصب عليه من الماء بقدر ما يخفي طعمه كله ثم يشرب فيسكن العطش ويبعد الماء ولا يسخن البتة ويخصب البدن متى شرب على أغذية كثيرة الإغذاء ويحسن اللون ويدفع الفضول جميعاً ويسهل خروجها من البدن بالنجو والبول والعرق والتحلل الخفيّ الذي بالمسام ويخرج الصفراء أيضاً في البول يوماً فيوماً فيمنع أن يكثر كميتها وسوء كيفيتها فهو لذلك عون عظيم على حفظ

الصحة إذا شرب على ما ينبغي ويصلح وقتاً وقتاً بالقدر المعتدل الذي تقهره الطبيعة وتستولي عليه ويطيب النوم ويثقله فتستريح لذلك الآلات النفسية راحة أكثر من راحتها عند النوم الذي على غير الشراب فيكون البدن بعد ذلك النوم أقوى والحركات أخف وأسهل والحواس أذكى وألطف والهضم أجود وأبلغ لطول النوم وقلة الحركات فيه، ومن تركه عن اعتياد له برد بدنه وهاجت به الأمراض السوداوية وقلت وضعفت هضومه كلها والمقدار الذي ينفع منه في هذه الوجوه ثلاث كميات:

أولها: أن يشرب بعد الطعام بقدر ما يسكن العطش سكوناً تاماً ولا يراد به غير ذلك من تفريح النفس وإطرابها وهذا هو الحد للمحرورين وأصحاب الأبدان الملتهبة جداً ومن يحم بحمى ويحمي جسمه عليه.

والحد الثاني إن أخذ منه إلى أن يبلغ أن يسر النفس ويطربها باعتدال في ذلك من غير ثقل في الرأس والحواس ولا ميل إلى النوم الشديد.

فأما ما جاوز ذلك إلى لجلجة اللسان وفقد صحة العقل واضطراب مفاصل البدن وضعفها عن الحركات فإنها حالة السكر وذلك ضار جداً في وجوه كثيرة ولا سيما إذا ترادفت وتواترت وقد ينفع إذا لم يواتر لكن وقع أن يكون في الشهر مرة أو مرتين أكثر فإنه في هذه الحالة يسخن البدن ويرطبه ويرقق أخلاطه ويفتح مجاريه ويحلل كل ما قد بدأ ينعقد ويجتمع فيه من فضولات رديئة ثم يخرجها بعد بالمجاري والمنافس ولا سيما إن شرب من غير هذا اليوم الماء فإن هذا الماء في هذه الحال يجيء إلى جميع ما حلله الشراب ورققه فيجريه ويدفعه ويسهل خروجه ويجيء إلى ما قد سخن من الأعضاء بالشراب فيبرده ويعيده إلى اعتداله ولذلك هو أجود من جميع الأشياء في

لقد عاش الأطباء في خيالات وأوهام بعيدين عن الحقيقة، فانطلقت أقلامهم لتسجل على صفحات مصنفاتهم

حفظ الصحة أن يجعل بعد يوم شرب الشراب يوماً أن يشرب الماء يومين أو ثلاثة، وما كانت دون ذلك فمبقدار مزاجها حتى يكون ذلك يوماً ويوماً.

وأما مواترة السكر وشربه على الخمار ومداومته ومواترته فجالب للأمراض المهلكة وإن بقي البدن على هذه الحال كثير بقاء حتى يقع في الأمراض الرديئة كالصداع والفالج والرعشة والأمراض الحائة ويورم الأحشاء لا سيما الكبد والدبيلات والجراحات وفساد العقل وكدر الحواس وضعف الحركات وترهل البدن وذهاب شهوة الطعام، وهو يختلف في أفعاله هذه بحسب اختلاف أنواعه والأسود الغليظ الحلو منه أكثرها إغذاء وتوليداً للدم الغليظ الأسود وشرها لمن يعتريه الإمتلاء والأعراض السوداوية وخيرها للمنهوكين ولمن يريد أن يزيد في لحمه والأبيض الرقيق أقلها إغذاء وأوقعها للمحرورين فإن الشراب له مع إسخان البدن أن يخرج الصفراء التي تتولد قليلاً قليلاً في البول كما ذكرنا قبل فيدفع كون الأمراض المرارية ولا سيما مثل هذا الشراب فإنه لا يسخن كثير إسخان ويدر البول إدراراً كثيراً، والأحمر المعتدل في غلظ ورقته أعدل الشراب وهو يولد دماً جيداً.

نقلت هذه العبارات بطولها لما يجده القارئ في ثناياها من اغترار هؤلاء الأطباء بما توهموه من منافع للخمر حرصوا على شرحها، وبيان متى تحقق منفعتها لمن شربها على نحو ما أرشدوه إليه.

عبارات هي أقرب إلى أن تكون دعاية للخمر وتبريرا لمعاقرتها، وقد تعاقبت على ذلك أقلام الأطباء جيلا بعد جيل.

ومما يؤسف له أن كثيرا من المفسرين وقعوا في أسر خيالاتهم؛ فنقلوا في تفاسيرهم هذه الأوهام الكاذبة ظانين أنها هي المنافع التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(1)، ولو أنهم جعلوا الحديث الشريف: "**إنها داء وليست دواء**" نصب أعينهم لما انجروا وراء الأطباء إلى هذه المتاهات التي حكم العلم ببطلانها، وإليك ما قاله بعض المفسرين الواقعين في هذا الوهم:

١- الفخر الرازي: ذكر في تفسيره "الكبير" منافع الخمر فقال:

(١) سورة البقرة الآية (٢١٩).

"ومنها أنه يقوي الضعيف ويهضم الطعام ويعين على الباه، ويسلي المحزون، ويشجع الجبان، ويسخي البخيل ويصفي اللون، وينعش الحرارة الغريزية ويزيد في الهمة والاستعلاء"(1).

٢- القرطبي: قال بعد ذكره للقول الأصح:

"وقد قيل في منافعها: إنها تهضم الطعام، وتقوى الضعف، وتعين على الباه، وتسخى البخيل، وتشجع الجبان، وتصفى اللون، إلى غير ذلك من اللذة بها"(2).

٣- ابن كثير، قال في تفسيره:

"وأما المنافع فدنيوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراجَ الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذّة الشدّة المطربة التي فيها"(3).

(١) تفسير الرازي، ج٦ ص٤١.

(٢) تفسير القرطبي، ج٣ ص٥٧.

(٣) تفسير ابن كثير، ج١ ص٢٥٦.

٤- الألوسي: قال:

"﴿ومَنَافِعِ للناسِ﴾ من اللذة والفرح وهضم الطعام وتصفية اللون وتقوية الباه وتشجيع الجبان وتسخية البخيل وإعانة الضعيف، وهي باقية قبل التحريم وبعده، وسلبها بعد التحريم مما لا يعقل ولا يدل عليه دليل، وخبر «ما جعل الله تعالى شفاء أمّتي فيما حرّم عليها» لا دليل فيه عند التحقيق كما لا يخفى"(١).

٥- قطب الأئمة: قال في "هميان الزاد":

"﴿ومَنَافِعِ للناسِ﴾: ككسب الأموال: بالخمر واللذة بشربها، وتقوية الضعيف وهضم الطعام، والإعانة على الباه وتسلية المحزون، وتشجيع للجبان، وتسخية البخيل، وتصفية اللون، وتنعيش الحرارة الغزيزة والزيادة فى الحسة".(٢) وقال في

---

(١) تفسير الألوسي، ج٢ ص١١٤.

(٢) هميان الزاد،ج٣ص١٩٤-١٩٥، محمد بن يوسف اطفيش، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

"تيسير التفسير" وهو - أي نفعها- تصفية اللون، وزوال الهم، وهضم الطعام، وتقوية الجماع، والفرح، والحمل على الشجاعة والكرم، إلا أنه يعقب الضعف ويثقب العظم"(١).

الخمر والبحوث العلمية:

ما كان لهؤلاء الجهابذة من المفسرين أن يقعوا في هذا الوهم لولا الوهم الذي طغى على العقلية الطبية منذ اليونان والرومان، ثم تابعهم الإسلاميون، فسرى وهمهم إلى المفسرين حسن ظن بهم، من غير تمحيص لحقيقة ما قالوه، وترى النبي ﷺ كان وحيدا في نقض هذا الوهم وتبديد هذا الخطأ، مع أن أكثر الناس في وقته كانوا أسارى أوهام الطب الخاطئة، ولذلك كانوا يجادلونه عليه أفضل الصلاة والسلام، ولكنه لم يتأثر بشيء من تلكم الأوهام، ولم يتضعضع أما تلك المجادلات، بل ثبت على

---

(١) تيسير التيسير، ج١ص٣٣٢، محمد بن يوسف اطفيش، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

كلمة واحدة، وهي كلمة سواء، نابعة من وحي الله سبحانه؛ لأنه لا ينطق عن الهوى.

وشاء الله سبحانه – تصديقا للنبوة، وتحقيقا لمعجزتها – أن يأتي الأطباء المعاصرون حتى من غير المسلمين ليضعوا المقصل على المفصل في هذه القضية، مسترشدين بالكشف العلمي والفحص الطبي من خلال الوسائل المتقدمة والتجارب المعمقة، فإذا بشمس الحقيقة التي طلعت من أفق النبوة الصادقة تشرق وتبدد بوهجها ما خيم على فضاء العقول قرونا وقرونا من ضباب الأوهام، التي استحوذت على الأفكار والأفهام فغدت أسيرة ضلالها، ودونك صورا من هذه الحقيقة الماثلة للعيان:

١. جاء في تقرير منظمة الصحة العالمية رقم (٦٥٠) لعام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م عن الكحول ومشكلاتها ما يلي:

"إن شرب الخمور يؤثر على الصحة ويؤدي إلى مشاكل تفوق المشاكل الناتجة عن الأفيون ومشتقاته (الهروين والمروفين) والحشيش والكاكايين والأفيتامين والباربيتورات وجميع ما يسمى مخدرات مجتمعة، إن الأضرار الصحية والاجتماعية لتعاطي الكحول تفوق الحصر".اهـ[١]

٢. جاء في تقرير الكلية الملكية للأطباء النفسيين بالمملكة المتحدة عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م عن مشكلات تعاطي الخمور ما يلي:

"إن الكحول مادة تسبب تحطيم الصحة بما لا يقاس معها الخطر على الصحة الذي تسببه المخدرات مجتمعة، وإن معظم المخاطر على الصحة العامة ليس من العدد القليل الذي يشرب

(١) الإعجاز العلمي في أحاديث التداوي بالخمر، د.محمد على البار، ص٦٠ نقلا عن:

Report of a WHO Expet Committee: Problems Related to Alcohol Consumption. WHO Technical Report Series, 650, Geneva.

كميات كبيرة من الكحول، وإنما الخطر على الصحة العامة هو من العدد الكبير الذي يتناول كميات معتدلة من الكحول".(١)

وعلق على هذا الأستاذ الدكتور محمد علي البار بقوله:

"وهو يرد بذلك على ما زعمه أبو بكر الرازي وابن سيناء ومن لف لفهم من الأطباء ومن صدقهم من العلماء والمفسرين من أن شرب الخمر معين على الصحة، والواقع أنها وبال على الصحة، ويؤكد هذا المعنى تقرير الكلية الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة الصادر عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م: العواقب والمخاطر الصحية لتعاطي الكحول وباء خطير وشر مستطير"(٢)

٣. تضمن التقرير المشار إليه آنفا ما يلي:

---

(١) المصدر السابق،ص٦١ نقلا عن:

Report Royal College of Psychiatrists: Alcohol Our Favorite Drug. 1986, Forward by T.Bewly. Tavistoc Pub, Londin.

(٢) المصدر السابق، نقلا عن:

Report Royal College of physicians: The Madical Consequences of Alcohol Abuse: Agreat and Growing Evil. Tavistock Pub, Londin 1987: 1-19.

"إن تعاطي (٦٠) غرام من الكحول يوميا يؤدي إلى زيادة كبيرة في ضغط الدم والسكتات الدماغية وأمراض الكبد والعقم وضعف الباءة وأمراض الجهاز العصبي، أما بالنسبة للمرأة فإن نصف هذه الكمية كفيلة بإحداث هذه الأمراض الوبيلة"(١)، وعلق عليه الأستاذ الدكتور البار بقوله:

"وهو كلام واضح ينقض كل حرف مما ذكره الرازي وابن سينا وابن كثير الدمشقي والفخر الرازي".(٢)

٤. جاء في كتاب "ألف باء الكحول" الصادر عن المجلة الطبية البريطانية الشهيرة (BMJ) عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ما يلي:

" إن ما بين خمس وثلث جميع الحالات التي أدخل إلى جميع الأقسام الباطنية في بريطانية كانت بسبب الكحول وفي انجلترة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وحدها (دون ويلز واسكوتلندة وإيرلندة الشمالية) يدخل إلى الأقسام الباطنية كل عام ما بين ٣٠٠ ألف ونصف مليون شخص بسبب أمراض متعلقة بتعاطي الخمور".[(١)]

٥. يقول الدكتور برنت في كتاب "مواضيع في العلاج" إصدار الكلية الملكية للأطباء بلندن عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م:

"لم يكشف الإنسان شيئا شبيها بالخمور في كونها باعثة على السرور الوقتي، وفي الوقت نفسه ليس لها نظير في تحطيم حياته وصحته، ولا يوجد لها مثيل في كونها مادة للإدمان، وسما ناقعا وشرا اجتماعيا خطيرا".[(٢)]

---

(١) المصدر السابق،ص٦٢-٦٣ نقلا عن:

Paton A.ABC of Alcohol BMJ Publication, London 1988: 1-12.

(٢) المصدر السابق،ص٦٣ نقلا عن:

Brunt P. Alcohol as A medicosocial Problem. In Vere D.W (ed): Topics in Therapeutics, 4, Royal College of Physicians, London 1978: 124 -135.

٦. أثبتت الدراسات الحديثة في بريطانيا والولايات المتحد وأوروبا أن (٤٠٪) من نزلاء المستشفيات العامة يعانون من مشكلات متعلقة بالخمور، وأن ما بين ثلث ونصف نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية في الإمريكيتين يعانون مشكلات متعلقة بالخمور، وأن سبب دخولهم إليها هو تعاطيهم الكحول بكثافة.[(١)]

٧. جاء في كتاب "ألف باء الكحول":

أن (٢٥٪) من جميع حالات التسمم في بريطانيا كان بسبب تعاطي الكحول، وأن (٦٠٪) من جميع كبار السن الذين أدخلوا إلى المستشفيات في بريطانيا بسبب كثرة السقوط أو هبوط القلب أو الإنتانات الصدرية المتكررة أو فقدان الذاكرة

---

(١) المصدر السابق،ص٦٣ نقلا عن:

Brunt P. Alcohol as A medicosocial Problem. In Vere D.W (ed): Topics in Therapeutics, 4, Royal College of Physicians, London 1978: 124 -135.

واضطراب الذهن، كانوا يعانون من مشكلات متعلقة بتعاطي الخمور، وفي روسيا فإن (٩٠٪) من حالات التسمم الكحولية الحاد التي أدخلت إلى المستشفيات كانت لأطفال تحت سن الخامسة عشر وأن ثلثهم كان دون العاشرة.(١)

٨. يذكر تقرير منظمة الصحة العالمية في الاجتماع الثالث والستين لعام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م الدورة (٣٢):

"أن تعاطي الخمور هو أحد المشكلات الصحية الكبرى في العالم، وأن الاستمرار في تعاطيها يعوق التقدم الصحي والاجتماعي والاقتصادي في معظم المجتمعات، بل ويشكل عائقا كبيرا في المجال الصحي، ويعد أحد العوامل التي تؤدي إلى تحطم الصحة العامة، ولا يوجد حل لها".(٢)

---

(١) المصدر السابق،ص٦٤.

(٢) المصدر السابق،ص٦٤-٦٥

وضرر الخمر يعم الجسم كله فيسري داؤه في جميع خلاياه، وقد طفحت كتب الطب الحديث بوصف أدوائه وآثارها الخطيرة؛ التي تقصم الأعمار وتهد الصحة وتفسد الحياة حتى تحولها إلى سعير لا يطاق، و في الولايات المتحدة الإمريكية يموت في كل عام ١٢٥٠٠٠ بسبب تعاطي الخمور(١)، بينما ضحايا جميع المخدرات مجتمعة ٢٠٫٠٠٠، وفي المملكة المتحدة بلغ ضحايا الخمر في كل عام ٤٠٫٠٠٠ شخص كما جاء في تقرير الكلية الملكية للأطباء العموميين.(٢)

---

(١) الإعجاز العلمي في أحاديث التداوي بالخمر،ص٦٦، نقلا عن مجلة "تايم" الإمريكية العدد الصادر في ٣٠ مايوم ١٩٨٠م.

(٢) المصدر السابق، ص٦٧ نقلا عن:

Report of Royal College of General Practioners: Abalanced View.J.Royal College of. London Nov,1986,(24): 45-53.

الأمراض الناجمة عن الخمر:

أما الأمراض الناتجة عن معاقرة الخمور فهي أكثر من أن تحصى، وإليك وصفا لبعضها:

١- أمراض القلب:

تقول مجلة (Postgraduate Doctor) العدد (٩١) لعام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م:

"أثبتت الدراسات العديدة أن شرب الخمور تحرض على حدوث نوبة الذبحة الصدرية، وأن معظم حالات موت الفجأة، واضطراب نظمية القلب كانت بسبب شرب الخمور.

وقد أوضحت دراسة شملت أكثر من ألفي شخص توفوا فجأة، أن نصفهم ماتوا بعد انغماس في شرب الخمر. وأظهرت دراسة أخرى أن شرب الخمر قد أدى إلى رجفان (ذبذبة) أذيني لدى (٦٣٪) من المرضى دون الخامسة

والستين، وأن شرب ما يعادل ستة كأسات من البيرة تؤدي إلى مضاعفة حدوث اضطراب نظم القلب".[(١)]

وبجانب ذلك فإن من آثار الخمر ارتفاع ضغط الدم (التوتر الشرياني) والسكتات الدماغية وهبوط القلب واضطراب نبضه وزيادة الترايجلستر أدز.[(٢)]

٢- أمراض الجهاز الهضمي:

تقول مجلة (Medicine International) العدد (٦٦) لعام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م:

تؤدي الخمر إلى زيادة حدوث سرطان المريء كما تسبب نزفا في المريء، ودوالي في أسفله، والتهابا مزمنا فيه. وتكثر الإسهالات والبواسير عند شرابي الخمور، كما يحدث التهاب حاد في البنكرياس الذي قد يكون مميتاً.

---

(١) المصدر السابق، ص٦٩-٧٠ .

(٢) المصدر السابق، ص٧٤.

"لقد دلت الدراسات التي أجريت على طلاب كلية الطب أن تناول (١٨٠) جراما من الكحول يوميا كاف لتسبيب دهنية الكبد، ثم تليف الكبد، ويعتبر تليف الكبد السبب الثالث للوفاة لدى البالغين الذكور في الولايات المتحدة، والرابع لدى الإناث".(١)

وبجانب ذلك فإنه ينتج عن معاقرة الخمر التهاب الفم والبلعوم والمريء ونزف المريء والتهاب المعدة الضموري وقرحة المعدة والأثني عشر وسرطان المعدة والتهاب الأمعاء والتهاب البنكرياس الحاد المزمن، والتهاب الكبد ودهنية الكبد وتليفها وسرطانها.(٢)

٣- الجهاز الدموي:

للخمر آثار خطيرة على الدم منها نقص جهاز المناعة

(١) المصدر السابق، ص٦٨-٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص٧٣-٧٤.

ونقص الخلايا اللمفاوية المناعية، وعدم تحرك خلايا الدم البيضاء لمواجهة الميكروبات، وقلة المقاومة للأمراض مع نقص شديد في الفيتامينات، وأنواع من فقر الدم أهمها ما يكون بسبب نقص حامض الفوليك وانحلال خلايا الدم الحمراء وزيادة نشاط الطحال وتكرر النزف.(١)

وفي الشتاء المنصرم سافر الشيخ الرضي الصالح حمود ابن حميد الصوافي حفظه الله تعالى ورعاه إلى ألمانيا الاتحادية للفحص والعلاج، وبعد فحص دمه عرضت نتيجة الفحص على طبيبة ألمانية غير مسلمة فعجبت من صفائه، وقالت له: "لو كنت في بلادنا وكنت تعاقر الخمر مثلنا لاستحال أن يكون دمك بهذا الصفاء، ولكن ورعك عن هذه السفاسف هو الذي حافظ على صفاء دمك"، ومن عجيب ما كان أن مرافقه الخاص فحص دمه فكانت نتيجته دون نتيجة الشيخ، مع أنه في عمر

(١) المصدر السابق، ص٧٤.

الشباب وهو تقي نزيه عن السفاسف، غير أن كثرة عبادة الشيخ، وحرصه على طول التهجد واستدامته لذكر الله، وتلاوة كتابه آناء الليل وأطراف النهار، كان كل ذلك عاملا مهما في صفاء دمه، وصحة جسمه، وما ذلك إلا من آيات الله في خلقه.

٤- الجهاز التنفسي:

لم يسلم هذا الجهاز من آثار الخمر عند مدمنيها، فكم لها من آثار عليه منها الالتهابات المتكررة الخطيرة، والالتهاب الرئوي، وخراج الرئة، والدبيلة، والسل الرئوي، وزيادة في سرطان الحنجرة.[1]

٥- الجهاز البولي:

الخمر وإن أدرت البول فإنها تؤدي إلى تنكرز ومواد حليمات الكلية، وهو مرض خطير يؤدي إلى الفشل الكلوي

(١) المصدر السابق، ص٧٥- ٧٦.

المزمن، ومن آثارها احتقان البروستاتا، والمعاناة الشديدة للذين يعانون من تضخمها.[1]

٦- الغدد الجنسية:

للخمر أسوأ الآثار على الطاقة الجنسية إذ تبعث على الهياج بادئ ذي بدء، حتى يفقد شاربها كل انضباط، فتكون من آثارها جرائم الاغتصاب، وربما كان ذلك حتى في ذوات المحارم، ولكن لا تلبث أن تضعف هذه الطاقة لتأثيرها على الغدة التناسلية تأثيرا سمياً، وعلى الجهاز العصبي غير الإرادي المنوط بعملية الانتصاب، كما أن الكبد المريضة بسبب تعاطي الخمر تفقد قدرتها على إزالة هرمون الأنوثة الذي تفرزه الغدة الكظرية، فتكون نتيجتها الإصابة بالعنة وتضخم الأثداء.[2]

(١) المصدر السابق، ص٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٧٢ نقلا عن:

It Provokes the Desire But Take Away The Performance

٧- الغدد الصماء والاستقلاب:

لم تسلم هذه الغدد من آثار الخمر الوبيئة منها فرط نشاط الغدة الدرقية أول الأمر، ثم ينتهي بالنقصان، وحدوث المسكوديما، وفرط نشاط الغدة الكظرية، ووجود حالات شبيه بتناذر كوشنج، وانخفاض سكر الدم لا سيما مرضى السكر الذين يتعاطون الأنسولين أو الأقراص المخفضة لمستوى السكر، ويحدث تفاعل خطير بين عقار الديابنيز والخمور، مما يؤدي إلى الوفيات وحدوث الغيبوبة.[(١)]

وبالجملة؛ فإن الخمر كلها ضرر وخطر على الصحة والحياة، وقد كنت إبان تفسيري لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ... الآية﴾، اطلعت على كثير مما كتبه الأطباء في هذا، وما نقلوه عن

(١) المصدر السابق، ص٧٦.

الأطباء الغربيين أو ترجموه، مما لم يتيسر لي الوصول إليه الآن، وكان مما استقر في ذاكرتي من ذلك:

أنه لم يسلم من الخمر شيء من الجسم، حتى نسيج الجلد، فإن للخمر تأثيرا عليه، حتى يكون جلد الشاب المعاقر للخمر أكثر تجعدا وضعفا عن المقاومة من جلد الشيخ الذي لا يعاقرها، وكذلك سحنة الوجه فإنها تذهب ببهاء الوجه ونضرته، كما تسبب جحوظ العينين، وهذا ما تجده في التقارير الطبية عند خبراء الطب حتى من غير المسلمين، جاءت هذه الحقائق كلها تصديقا لما قاله نبي الإسلام عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، وردا لتلك الأوهام التي غرق فيها الأطباء المتقدمون، حتى من كان منهم من المسلمين، ومن شاء المزيد من هذا فعليه بكتاب الطبيب المسلم الأستاذ الدكتور: محمد علي البار "الخمر بين الطب والفقه" وكتاب الطبيب المسلم الأستاذ الدكتور: حسان شمسي باشا "أطباء الغرب يحذرون من شرب الخمور"، وقد اختتم الأستاذ الدكتور محمد علي البار

دراسته المعنونة بالإعجاز العلمي في أحاديث التدوي بالخمر بقوله:

"إن أحاديث المصطفى ﷺ معجزة كاملة حيث نهت عن التداوي بالخمر والتدفئة بها وصرحت بأنها داء وليست بدواء ولا شفاء، في زمن كان العرب يعتبرونها فيه دواء وغذاء وباعثة على الكرم والشجاعة والسخاء.

واستمر الأطباء على ذلك الوهم، وأنها معين على الصحة مخصبة للبدن طاردة للفضول والأخلاط الرديئة شاحذة للذهن مقوية للجسم مهضمة للطعام..إلخ وأن شربها باعتدال من أهم أسباب الصحة والعافية، بل أن السكر والعربدة منها مرة أو مرتين في الشهر مفيد للصحة أيضا.

ثم جاء الطب الحديث فأوضح زيف جميع ما قالوه، وأنه الباطل والبهتان والأوهام، وأن ما قاله الحبيب المصطفى ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه، وأنها داء كما قال، لا دواء كما زعم الأطباء، وأنها تدفئ الجسم بل تؤدي إلى فقدان الحرارة والموت

من البرد، وهو يشعر بالدفء الكاذب، وحديثه ﷺ معجزة لم تظهر أبعادها إلا في القرن العشرين".اهـ[١]

ثالثها: ما رواه البيهقي في "شعب الإيمان" من طريق ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل جاء فيه:"لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فشت في أسلافهم".

فأنت ترى أن النبي ﷺ يخبر في هذا الحديث الشريف بظاهرة غيبية لم تكن بارزة في عهده، وإنما جاء الزمن بأحداثه ومصائبه ليكشف عنها تصديقا لخبره، وتحقيقا لمعجزته، كما هو الشأن في الروايات السابقة وغيرها من أحاديثه ﷺ؛ التي تكشف حقائق الغيوب، وليس المرء في حاجة إلى أن يستعرض ما مر به التأريخ من أحداث تستوقف كل من كان له قلب ليشهد صدق نبوته ﷺ فيها، وإنما يكفي الإنسان أن يفتح عينيه على ما يزخر به

---

(١) المصدر السابق، ص٧٨-٧٩.

عالم اليوم من نكبات ومصائب وويلات جرها الإنسان إلى نفسه، بما ارتكبه من الفحشاء وقارفه من الفساد، غير مبال بحرمات الدين، ومقتضيات الفطرة الزكية، ناهيك بمرض فقدان المناعة المكتسب؛ الذي هو طاعون العصر وما يجره إلى الناس من وباء ووبال، وما يحصده من الأرواح، ويثيره من رعب بين الجنسين، فإنه لم ينشأ إلا عن ظهور الفحشاء والتباهي بها، وهو يتركز دائما حيث تتركز الدعارة وتنتشر.

ومثله توأمه المعروف بالهربس، فإنه نتيجة الاتصال غير المشروع وإذا عدنا إلى الوراء قبل بضعة قرون، نجد أن مرض الزهري الفاضح كان وليد الفحشاء؛ التي ظهرت في الغرب ظهورا فاضحا، فقد بدأ في الانتشار بعد عام ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م بطريقة سريعة في موانئ أسبانيا، وجنوب فرنسا وإيطاليا، وتحرك نحو الشرق حتى وصل إلى فيينا، وتخطى لايبزج بألمانيا، وبيزجين بالنرويج، وأبردين بسكوتلندا، وهو مرض لم يعرفه الأطباء من قبل، ومن هناك أخذ ينشر في العالم، وعندما قام

الملك تشارل الثامن بغزو ميلانو وروما نابولي انتشر هذا المرض انتشارا خطيرا بين جنوده؛ لما هيأه لهم من فرص المعاشرة المحرمة، حيث كانت معهم آلاف المومسات، وكانت غزوتهم هذه أشبه بالمهرجان الجنسي.

ومن خلال تنقلاتهم انتقل إلى أرجاء العالم، فكانت له مراكز للإنشار على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وانتشر في الهند وغيرها، وانتقلت عدواه من الخلايل إلى الحلايل؛ لمعاشرة أزواجهن لهن بعد معاشرة المومسات، ورسخ في بيوت الدعارة الرسمية، وحمامات البخار؛ التي يستمتع فيها المترفون بالاستحمام والفحشاء، حتى صدرت أوامر صارمة بين عامي٩٢٦هـ-٩٣٦هـ/ ١٥٢٠-١٥٣٠م بإغلاق حمامات البخار، ودور الدعارة الرسمية حفاظا على الصحة.

وفي هذه الفترة وجدت دعوة مارتن لوثر سبيلها إلى الأراضي الألمانية، وتبعتها دعوة جون كالفن في فرنسا

وسويسرا؛ بسبب انتشار الأوباء، مع انتشار الفساد حتى كادت تكون منها إبادة للناس، فاستغل هؤلاء الدعاة هذه الفوضى الإباحية والانحدار الخلقي للإصلاح في الوضع الكنسي؛ لأن العفة أصبحت هي الملاذ الوحيد من هذا الخطر الداهم.

وجاءت هذه الآفة إلى مصر مع حملة نابليون بونابرت، وقد أصيبت نسبة عالية من هذه الحملة بهذا المرض الفتاك، فاضطر الجنرال ديجيا أن يكتب إلى نابليون يشكو ما كان من البغايا من نشر هذه الآفة بين الفرنسيين، فعلق نابليون على هامش خطابه موجها أوامره إلى أغا الانتشارية أن يقوم بتنفيذ هذه المهمة بصرامة، ويذكر ديجنت في كتابه "التاريخ الطبي لجيش الشرق" أن ٤٠٠ من الموسات اللاتي كنَّ يمارسنَّ البغاء مع الفرنسيين قطعت رؤوسهن بالسيف، وألقين في النيل بأمر الأغا حتى يكن عبرة لغيرهن.

وبما أن العرب لم يكونوا على عهد بهذا المرض قبل الحملات الفرنسية التي جاءت به من أروبا سموه بالإفرنج كما هو معروف.

فهل بعد هذا كله تبقى ريبة في صدق ما أخبر به رسول الله ﷺ، أو أنه عليه أفضل الصلاة والسلام ينطلق في حديثه من موقنات الوحي الذي يوحى إليه، أما الذين يجادلون في هذه الحقيقة بعد قواطع النص الدالة عليها، ودلائل الواقع التي صدقتها، فإنهم يجادلون في الصبح بعد ما وضح لكل ذي عينيين، فهم يكابرون عقلهم وينكرون حسهم، فما أشبههم بمن قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(١)]، أفلا يشفقون على أنفسهم من عاقبة أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[(٢)]

---

(١) سورة النمل الآية ١٤.

(٢) سورة النمل الآية ١٤.

ذكر الله وأثره في النفوس:

إن ذكر الله تعالى هو نور الحياة، وبهجتها، وقوامها، وأمنها، يسري في الأرواح الميتة فيحييها، ويشرق على القلوب المظلمة فيطوي سجاف ظلامها، كما تطوي الشمس ظلمات الفضاء عندما تشرق عليه، فتحول ليله الموحش إلى صبح مؤنس وسواده الحالك إلى بياض ناصع، وهكذا الذكر تطمئن به القلوب بعد وحشتها، وتستقر به النفوس بعد بلبلتها، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]، لذلك كان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله؛ لأنه سبب يصله به تعالى، وقد أمر الله تعالى به في كثير من محكمات الكتاب، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2].

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب الآيات ٤١-٤٢.

ووعد ذاكريه بذكرهم في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1]، وجعل كل ما شرع من عبادة مئنة لذكره؛ لأن ذكر الله تعالى يندرج فيه كل ما يتقرب به العبد إليه سبحانه، من الصلوات والحمد والتسبيح والتهليل والتكبير، فإن الصلاة إنما شرعت لذكره تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[3].

وبعد أن ذكر جانبا من أحكام الصيام أتبع ذلك قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ

(١) سورة البقرة الآية ١٥٢.

(٢) سورة طه الآيات ١٤.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

كما أكد على ذكره حال أداء مناسك الحج حيث قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3].

وأمر عباده بأن يذكروه عند انفلاتهم من عباداته، ولو أقبلوا على دنياهم حتى لا تنقطع صلتهم به، فقد قال: ﴿فَإِذَا

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٨٥-١٨٦.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٥.

قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

ونص من بين الذكر على التسبيح خاصة حيث قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[3]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[4]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[5].

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٣.

(٢) سورة النساء الآية ١٠٣.

(٣) سورة ق الآية ٤٠.

(٤) سورة الطور الآية ٤٨-٤٩.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٠٠.

ووعد ذاكريه ذكرا كثيرا بالمغفرة والأجر العظيم حيث قال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وأمر عبده أن يجدد ذكره له كلما نسيه في قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[2].

ووصف أولي الألباب من عباده بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٥.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩١.

ووصف المؤمنين بأنهم تطمئن قلوبهم بذكره حيث قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

وأمر نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع الذين يدعونه بالغداة والعشي، ونهاه عن طاعة من أغفل قلبه عن ذكر الله، وذلك في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2].

والذكر هنا وإن فسر بالقرآن فإنه يشتمل على سائر ذكره تعالى وتوعد من يعشو عن ذكره بأن يقيض له من الشياطين قرينا حيث قال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨.

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(١)، وهو كالذي قبله يسري حكمه في غير القرآن وإن كان مقصودا به القرآن .

ووصف عباده الصالحين الذين وعدهم الدرجات العلى في جنته بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٢)، وقال فيهم أيضا: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾(٣)، ووصفهم أيضا بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦.

(٢) سورة الذاريات الآية ١٧-١٨.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦-١٧.

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

ووصف المنافقين بأنهم لا يذكرونه إلا قليلا، حيث قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

وبين أن شأن الشيطان أن يصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾(٣).

وبين تعالى أن ذكره هو نجاة من المحن، وكشف للكروب، ودفع للهموم، وذلك عندما حكى قصة يونس عليه السلام

(١) سورة السجدة الآيات ١٥-١٧.

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٩١.

فقال: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال فيه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2]، وأمر بذكره عند ملاقاة العدو في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وبين أثر ذكره في هذا الموقف فيما حكاه من قصة طالوت وجالوت إذ قال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٨٧-٨٨.

(٢) سورة الصافات الآيات ٤٣-٤٤.

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٠-٢٥١.

كما بين أن سبب هلاك الذين أتاهم بأسه أنهم لم يتضرعوا إليه وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

وذكر الله تعالى مشاركة من الذاكرين للملأ الأعلى الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3]، وقوله:

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٤٢-٤٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٩١.

(٣) سورة الأنبياء الآيات ١٩-٢٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(١)، بل هو مشاركة لهذا الكون الواسع الذي تسبح كل ذرة من ذراته بحمد الله وتسجد خاضعة لجلاله كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٣)، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٤).

من أجل هذا لا يشعر الذاكرون بوحشة في نفوسهم من الكون وما فيه؛ لانسجامهم معه في الذكر، وتناغمهم معه في تسبيح الله تعالى وحمده، وتهليله وتكبيره، بخلاف الذين حرموا

---

(١) سورة المائدة الآية ٩١.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٦.

(٣) سورة الحشر الآية ١.

(٤) سورة الجمعة الآية ١.

هذه النعمة، فانعقدت ألسنتهم عن ذكر الله، وخربت قلوبهم بنسيانه، أولئك الذين قال فيهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(١)، وحذر المؤمنين من التأثر بهم حين قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وقد إيفت قلوب هؤلاء الذين عزفوا عن الكتاب والسنة، واغتروا بما أوتوه من عقل بهذه الآفة الخطيرة، فقد أظلمت عقولهم ومرضت قلوبهم بإعراضهم عن ذكر الله، حتى بلغ بهم الأمر أن تضيق منه صدورهم، كما أنهم يسخرون ممن يدأب على الأذكار المأثورة أدبار الصلوات، وعند إقبال الليل والنهار، أو إدبارهما، وفي أي حال يسن فيه ذكر مأثور.

فيا ترى كيف يضيق صدر من يؤمن بالله واليوم الآخر من ذكر الله تعالى، ويسعى إلى الصد عنه، مع هذه النصوص

---

(١) سورة براءة الآية ٧٧.

(٢) سورة الحشر الآية ١٩.

القطعية الدالة على أن ذكر الله سبحانه هو كيمياء السعادة، وروح العبادة، ومناط السلامة، وأساس الاستقامة؟.

وقد وصف الله سبحانه المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، كما أخبر أن الصد عن ذكره من شأن الشيطان، أفيكون من هذه صفته إلا من حزب الشيطان؟ ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.(١) وقد تجاوزوا هذا الحد إلى التهكم والسخرية بالذكر، والله المستعان.

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٩.

التقول على الله بغير علم وأثره في نقض عرى الإسلام:

ما أحوج الإنسان إلى الاستبصار بنور العلم في درب حياته ومنحنياتها، حتى يكون في ورده وصدره وعطائه ومنعه وقبوله ورفضه على بصيرة من ربه، وبينة من أمره؛ لأنه لم يخلق هملا، ولم يترك سدى، وهو مسؤول عما قدم وأخر، لأنه مستخلف في أرض الله بأمر الله، وهو ينوء بأمانة ثقلت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، فما أجدره أن يكون في حياته حذرا وجلا يرجو رحمة ربه ويخشى عقابه، وما أحراه أن يصون أقواله وأعماله من آفات الجهل، وأفن العمى، وأن يستزيد في جميع الأحوال من العلم، فإن الله سبحانه قال لأعلم خلقه، وأنورهم بصيرة، وأطهرهم سريرة، وأعدلهم سيرة، وأقومهم سلوكا، وأوفرهم عقلا: ﴿وَقُلْ رَبِّ

زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، وأوحى إليه عندما سئل عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وقال له مخاطبا جميع عباده في شخصه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[3].

وحكى عن الملأ الأعلى أنهم أَجَابُوا في مقام الاختبار بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[4].

فالإنسان مهما أوتي من بسطة في العلم، وسعة في الإدراك، وعمق في الفهم، لا يخرج عن حدود الإنسانية القاصرة، ولا يتجاوز طور المخلوقية الناقصة، وما علمه الذي

(١) سورة طه الآية ١١٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٤) سورة البقرة الآية ٣٢.

أوتيه بجانب جهله الذي أحاط به إلا كنقطة ماء في محيط لا ساحل له ولا قعر، فلا نسبة بين ما يعلمه وما يجهله إلا نسبة المحدود من المطلق، لذلك كان عليه أن يكون حذرا من أن يجترئ على القول بما لا يعلم، فإن ذلك من كبائر الإثم المهلكة، كيف وقد قرنه الله تعالى بالإشراك به عندما قال تحذيرا وتنفيرا من مواقعة محارمه:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وما تلك إلا دعوة الشيطان بين أوليائه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٩.

وبهذا يتفاوت العقلاء المستبصرون، والحمقى المغرورون، فالعاقل من ألجم فاه وعقد لسانه فلم يجترئ أن يقول على الله ما ليس له به علم، والأحمق من أطلق للسانه العنان فلم يبال بما يقوله؛ لعدم تفكيره في العواقب، ولأن الإعجاب بما عنده مما يحسبه علما غزيرا، وفهما عميقا، مَلَكَ عليه لبَّه، وسدَّ عليه منافذ الإدراك.

وهذا ما نجده في هؤلاء الذين اغتروا بعقولهم، فإنهم بما غلب عليهم من الجهل المركب، والغرور المطبق، يتصورون أنهم أحاطوا بكل شيء علما، وأن الدنيا والآخرة والملك والملكوت والأزل والأبد كل ذلك واقع تحت حيطة إدراكهم وفهمهم، فلا يشذ منها شيء عن دائرة علمهم، ومحيط تصورهم، سواء ما كان من عالم الأرواح، أو ما كان من عالم الأبدان.

ناهيك أنهم قدَّموا ما تصوروه بحماقتهم وجهلهم من معاني القرآن على ما قاله الرسول ﷺ بيانا له، مع أنه هو الذي

أنزل عليه وأمر بتبيينه، كما أمر بتبليغه، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١)، دع العلماء الربانيين والفقهاء المحققين فإنهم في موازينهم هم أقل من قلامة ظفرهم، وشسع نعلهم، وأين هذه الأخلاق الساقطة من أخلاق العلماء؛ الذين أورثهم الله سبحانه خشيته، وأودع قلوبهم نوره، فكم تجد في عباراتهم من التواضع لمن سبقهم من أهل العلم، واعترافهم بمكانتهم وقدرهم، وإن أدى بهم اجتهادهم إلى مخالفتهم في الرأي، واتباع غير ما نهجوه في الأقوال.

فهذا الإمام المحقق المجتهد نور الدين السالمي - رحمه الله تعالى - كم يعترف للعلماء الذين قبله بطول الباع في العلم ورسوخ القدم في الفهم كما في قوله بعد ذكره لما قاله السلف في أحكام الفقد:

(١) سورة النحل الآية ٤٤.

نفهم بعضه ويشكلّنا   بعض وكل ذاك نقبلنا
لعلمنا بفضلهم وعلمهم   فأين علم من أتى من بعدهم
نتهم النفوس فيما أشكلا   ونعرف الفضل لأرباب العلى
وأعمش العينين ليس ينظر   مقدار ما ينظره من يبصر

وقوله أيضا:

ما حالة الأفهام مع أفهامهم   لا يبلغ العقل إلى مرامهم

وكم تجد في فتاوى الإمامين المجددين المحققين الربانيين أبي نبهان والخليلي -رحمهما الله تعالى- في مؤلفاتهما وفتاواهما من هضم لأنفسهما وإعلاء لقدر من سبقهما، حتى لا تكاد تجد في أجوبة الإمام أبي نبهان جوابا يخلو من تذييله بقوله: "فانظر فيه ولا تأخذ إلا بعدله" وهكذا تجد نهج علماء السلف من الصحابة والتابعين ومن اقتفى آثارهم وكرع من معينهم.

أما هؤلاء المغرورون فإنك تجد أحدهم - وهو لا يفرق بين الضب والنون ولا بين الذئب والحمل ولا بين التمرة والجمرة - يخيل إليه بغروره أنه أوتي علم كل شيء، فلا يتورع أن يتطاول على العلماء الراسخين؛ بتسفيه أحلامهم، وتنقيص أقدارهم ولا غرو فإن هذا هو ديدن السفهاء في نظرتهم إلى الفقهاء كما قيل:

ومنزلة الفقيه من السفيه   كمنزلة السفيه من الفقيه
فهذا زاهد في قرب هذا   وهذا منه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على السفيه   تنطع في مخالفة الفقيه

ولم يتعظوا بمواعظ القرآن؛ التي ذكر الله تعالى فيها الذين فرحوا بما عندهم من العلم، وافتتنوا بذلك فكانوا عبرة لمن بعدهم، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ

فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ

(١) سورة القصص الآيات ٧٦-٨٢.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾(١).

وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

وقد غر هؤلاء ما أضفوه على أنفسهم من وصف "المفكرين" وما دروا أن من التفكير ما يردي صاحبه في الجحيم -والعياذ بالله- كالذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ

(١) سورة الزمر الآية ٤٩-٥١.

(٢) سورة غافر الآية ٨٣-٨٥.

أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[1]، فانظر ماذا كانت عاقبته في قوله سبحانه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾[2].

إنكار بركة أسماء الله الحسنى:

وبسبب هذا الغرور اندفعوا إلى إنكار كثير من الحقائق؛ التي لم يحيطوا بها علما، لأنهم يتصورون أن كل ما خرج من دائرة معلوماتهم فلا حقيقة له، ومن ذلك إنكارهم الرقية الشرعية بالقرآن الكريم، أو بأسماء الله الحسنى، فإنهم بالغوا في إنكار أن تكون في كتابه أو لأسمائه الحسنى بركة يستشفى بها من مرض، أو يدفع بها مكروه، وقد عمي عليهم أن هذا مما ذكره الله في كتابه فقد ذكر الله أيوب وما أصابه من ضراء فقال:

---

(١) سورة المدثر الآيات ١٨-٢٥.

(٢) سورة المدثر الآية ٢٦-٢٩.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[1].

وذكر يونس ومحنته فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فأنت ترى أن النبيين الكريمين عليهما السلام إنما لجآ إلى الله متضرعين إليه، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنجاهما بذلك، وكشف ضراءهما، فما الذي يمنع أن تسري هذه البركة لكل داع مخلص مبتهل إلى الله بأسمائه وصفاته؛ التي تضمنها كتابه، فيكشف الله ما به من ضر؟!.

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٨٣-٨٤.

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٨٧-٨٨.

على أن في قصة النبيين الكريمين عليهما السلام ما يدل على هذا، إذ جعل في قصة أيوب ذكرى للعابدين، وما ذلك إلا حض على اتباعه والاقتداء به في التوجه إلى الله تعالى، عندما تغشى الإنسان غواشي المحن، وتضيق عليه حلقاتها، لينفس الله تعالى كربته ويكشف ضراءه.

وأما قصة ذي النون فقد أتبعها الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كهذه التنجية التي أخرجت يونس عليه السلام من بطن الحوت ننجي المؤمنين إذا توجهوا إلى الله بصفاء سريرة، وخلوص نية، فإن بركة أسماء الله التي يدعونه بها، وآياته التي يتلونها، يكشف الله بها ضراءهم التي يشكونها.

إنكار العين:

وكذلك أنكروا ما عسى أن يكون للعين من أثر، بدعوى أن إثبات ذلك موقوف على نص قطعي الثبوت والدلالة معا، وقد جهلوا أن الإثبات إن كان يتوقف على دليل

قطعي فالإنكار مثله، إذ الواجب على الإنسان فيما لم يكن له به علم التوقف لا الإنكار، ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾(١).

فليس للإنسان أن يكذب بما لم يقم له دليل قاطع على كذبه، على أن في الآية الكريمة ما يدل بأن التكذيب والرد يجب الاحتياط فيهما أكثر مما يكون في التصديق والقبول؛ لأن التصديق يكون بثبوت الصدق من أي جهة كانت، بينما التكذيب لا يكون حقا إلا عندما يحيط المكذب علما بجميع وجوه ما كذبه، بحيث لا يكون احتمال لصدقه قط، وهذا ما يؤذن به قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾(٢)، ولذلك قال العلماء بأن الشهادة على النفي هي شهادة تهاتر، وفي آخر

---

(١) سورة يونس الآية ٣٩.

(٢) سورة يونس الآية (٣٩).

جلسة جلستها مع من تولى كبر هذه الدعوة سألته عن سلسلة نسبه: إلى أي جد يستطيع أن ينسب نفسه؟.

فأجابني: بأن لا يعرف من أسماء آبائه إلا اسم أبيه وجده وأبي جده.

فقلت له: أوتستطيع أن تجزم بأنه ليس من آبائك من اسمه سعيد أو صالح أو سالم مثلا؟. فقال: لا.

فقلت له: أولا يكفيك ذلك دليلا على أنه لا يسوغ لك إنكار ما لم تحط علما بعدمه، وأنه لا يكفي في إنكارك للشيء أن لا يكون لك علم بوجوده؟.

هذا؛ ومن المعلوم أن ما يكون للعين من أثر إنما هو بما أودع الله تعالى في الإنسان من طاقة روحانية غيبية، والعالم الروحاني عالم غيبي له خصائصه؛ التي لا يحيط الإنسان بها علما، وإنما يعرف آثارها التي تبرز في عالم الواقع.

وحسبك منها التنويم المغناطيسي؛ الذي هو ليس إلا أثرا من آثار هذه الطاقة الروحانية، التي يتفاوت الناس فيها، وقد اطلعت في بعض الصحف - قبل أكثر من ثلث قرن من الزمن - أن التنويم المغناطيسي قد يكون حتى بمكالمة هاتفية من مكان سحيق.

وأنت تعلم أن الروح نفسها إنما هي من أمر ربي، الذي لا سبيل للإنسان إلى معرفة حقيقته، وحسبه منها ما يرى من آثارها في حياة جسمه، وما تأثير العين إلا سر من أسرارها، فما للإنسان واقتحام لجة هذا الأمر، حتى ينفي ما لم يرق منه لعقله؟!.

أولا يكفي الإنسان أن العالم المادي؛ الذي هو ميادن تجربته، فيه من العجائب ما لا يدخل في الحسبان إلا بعد وقوع تجربته فعلا، وهو مع تمكنه من استغلاله لا يحيط بسره؟ ناهيك أن الإنسان يضغط على أزرار في جهاز بيده فيوجه من خلال

ذلك صوتا مسموعا بجهاز من يريد مخاطبته، ولو كان أحدهما بشرق الأرض والآخر في غربها، أو كان أحدهما في جنوبها والأخر في شمالها، وقد يطبع على آلة طابعة في مشارق الأرض فيظهر المطبوع في مغاربها، أوليس ذلك استغلالا للطاقة المادية التي جعلها الله تعالى في طبيعة هذا الكون؟.

فأي عجب مع هذا كله أن يكون للعين أثر بما جعل الله سبحانه من طاقة روحانية في صاحبها، وهو وإن لم يدل عليه نص قطعي الثبوت والدلالة فإن التجربة دالة عليه، فكم نظر مِعْيَانٌ إلى بقرة حلوب فجف ضرعها، فإذا تلا عليها تال ما تيسر له من القرآن در ضرعها كما كان، وليست جميع الحقائق تتوقف معرفتها على نصوص دالة عليها، فهذه الثورة العلمية التي قلبت الحقائق رأسا على عقب، حتى غدا ممكنا ما كان مستحيلا من قبل، هل يتوقف التصديق بها وبآثارها على نصوص قطعية الدلالة والثبوت؟ كلا، وإنما التجربة كافية لأن تكون حجة مصدقة لها.

الاستخفاف بالعلماء والاغترار بالنفس:

لم يكن التعالم والاستخفاف بأقدار العلماء وتسفيه حلومهم من ديدن هؤلاء الأغرار أنفسهم، بل حرصوا على توريثه تلامذتهم ومريديهم، فإنهم ينشئونهم على الاغترار بأنفسهم، والاعتداد بعقلهم، والتطاول على أصحاب الحلوم الراجحة، والعقول الثاقبة، والعلوم الراسخة، حتى يرسخ في نفس أحدهم -وهو أجهل من عير أهله- أن ذهنه وسع العلم كله، فأحاط به من أطرافه، وهذه هي أدهى الدواهي، وأطم الطامات، كيف ينشأ طالب العلم على الغرور والجهل، ويرسخ فيه ذلك، حتى يكون ملكة في نفسه، وجزءا من طبعه؟!.

مع أن طالب العلم أحوج ما يكون إلى أن يربى على التواضع، والاعتراف أن العلم بحر عميق واسع لا قبل لأحد بتصور عمقه وحدوده، وإنما أسعد الناس به من بللته موجة بساحله.

على أن التعليم وإن أخذ حظه من العمق والسعة، لا قيمة له - في موازين الحق - حتى تصحبه تزكية للنفس تنمي فيها ملكات الخير، وتقتلع منها طباع السوء، فإن الله تعالى بعث نبيه ﷺ معلما ومزكيا، ولذاك امتن بهما معا في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2].

وبهذا دعا الخليل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فقد حكى الله دعاءهما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

(٢) سورة الجمعة الآية ٢.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وأي تزكية تكون لمن يتربى على التعالي والتعالم، والاغترار بالنفس، وتسفيه الغير، وتحقير أولي العلم والفضل، ولله در إمامنا السالمي رحمه الله حيث قال:

والمستخف بالمقام الأفضل ... تنزع منه بركات العمل
أعني بذاك العلما لأنما ... صدورهم فيها الكتاب رسما
فهي نظير اللوح حيث كانا ... كلاهما قد جمعا القرآنا

وفي هذا يقول علامة الفقه والأدب أبو مسلم –رحمه الله تعالى–:

"وألفة الأخيار تُشعل أنوار الحكمة في القلب والعكس في العكس، وتُنزَعُ البركة من أعمال المستخف بالعلماء؛ لأن قلوبهم ألواح القرآن.

قلت – القائل أبو مسلم –: "الاستخفاف بالعلماء هو السم الناقع، ومن غض من ولي رماه الله بسهم لا بُرء له، وفي الحديث: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا

ولا يبغ بعضكم على بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه".

وما أعظم منافع هذا الحديث وأكثر فوائده لمن تدبره وفي الحديث: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر البطر وغمط الناس"، والبطر: دفع الحق، والغمط: -ويروى بالصاد المهملة (الغمص) معناهما- الاحتقار.

فالحذر الحذر من احتقار العلماء الأولياء؛ فإنه مهلك عظيم، وسبب لنقمة الله وأخذه الأليم، وهو علامة إعراض القلب عن الله، وامتلائه بالأمراض، وقلما ينجو صاحبه من سوء الخاتمة -أعاذنا الله منها ورزقنا بفضله وبركة أوليائه حسنها-.

وأكثر المبتلين بالقدح في العارفين بالله المتفقهة الدنيوية، الأغلب همهم التفتيش عن نقائص عباد الله وبالخصوص العلماء العاملون والبحث عن عيوبهم الشرعية، المعرضون عن تأويل ما يجدونه من عباراتهم في العلم النافع، ويرونه بحسب أفهامهم مخالفا لظواهر الشرع، وإن كانت احتمالاته وتأويلاته أوسع من الفضاء، يشنون عليهم الغارات، ويكرون عليهم الكرات، من ثغور فتحها لهم الشيطان، ووسعها لهم الهوى، محتملة على ضعف من الاحتمال للخطأ وإن كان صوابه في رابعة النهار، فيملؤون الدنيا عجيجا بالرد على أولياء الله، ويشغلون المسامع بشقاشق القدح في أعراض علماء الآخرة بطرا بالحق وغمطا لأهله ورغبة إلى استمالة الناس إليهم لتعظيم درجاتهم والاعتراف لهم بالنبوغ والقدم الراسخ في العلم.

كل هذه الشيطنة حبائل أغراض همهم إنفاذها، وشهوات نفسانية يبالغون في إكرامها، وضالتهم المنشودة وجد

فاسد يعتدون به ذريعة إلى تنقيص أُولِي الفضل والكمال من أهل الله، فلو عساهم ظفروا بهم جعلوا النقطة باءا، وطاروا بأجنحة الأشر شعاعا، وقد قلت في مثل هؤلاء من قصيدة:

إذا رأوا حسنا في كامل دفنوا … وإن رأوا سيئا في رأيهم نشروا

أولئك القوم أعداء الحقيقة لا … يرضون حقا ولا يرضيهم بشر

إذا دعاهم غوي للهوى عطفوا … عطف المطافيل أو داع الهدى أشروا

حذار منهم ثعابين العباد فكم … بسمهم قتلوا الدنيا وكم حشروا

عثرة المؤمن لديهم لا تقال، ومحو زلة المؤمن من المحال، قصروا الدين على الطعن واللعن والهمز واللمز والتعريض والتقريض، ذؤبان فرايسهم الأعراض، وصادة صيدهم الأغراض، فمثل هؤلاء الشياطين لا يقتصر في وصفهم على نزع البركة فحسب، بل الوصف الصحيح أن أعمالهم ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾(١).

---

(١) سورة إبراهيم الآية (١٨).

وإذا كان بناؤهم على مهيل الرمال فكيف يقوم بناء تلك الأعمال؟!، وإذا كانت الأعمال ذاتها من المفقود، فما الذي تنزع منه البركة وهو غير موجود؟!، فالصواب أنهم أهل العداوة والقطيعة، كل أعمالهم ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾(١) وحرم أن يقال لمن يخشى الله يا جاهل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢)"اهـ(٣)

ولعمر الحق؛ أن هذا الغرور هو أعظم ما يثبط العزائم، ويقعد بالهمم عن طلب العلم، عندما يخيل إلى الجاهل الأحمق أن ذهنه الخامل خزينة العلم الجامعة لدقائقه وجلائله؛ التي لم يفتها شيء من طارفه أو تليده، فلا يكلف نفسه عناء الطلب ولا يحتمل أي مشقة في سبيل ذلك، وما هذا إلا ضرب من الجنون كما قال الشاعر:

---

(١) سورة النور الآية (٢٩).

(٢) سورة فاطر الآية (٢٨).

(٣) نثار الجوهر ج١.

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا   بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة   تحملها فالعلم كيف يكون

ومن تصور أنه قادر على الإحاطة بالعلم فما له إلى العلم من سبيل، كما قال أحد الحكماء: "لو طلبنا العلم على أن نحيط به لكنا قد بدأنا طلبنا بانتقاص العلم ولكن نطلب العلم من أجل أن ننقص كل يوم من جهلنا شيئا" .

ما يتوقف عليه العلم الشرعي من الوسائل:

كم يتمنى الإنسان أن يغدو فقيها محققا جامعا من علم الشرع وسائله ومقاصده، ولكن أنى ذلك إلا لمن أفاض الله عليه فيوض مواهبه، ووفقه لتحصيل العلم باتباع وسائله إلى مقاصده، ولئن كان الله سبحانه أنعم على رهط من الرعيل الأول بالتلقي عن النبي ﷺ من نصوص الوحي من الكتاب والسنة ما بلغوا به في العلم شأوا عاليا، بسبب ما أودعه الله سبحانه وتعالى فيهم من ملكات تفتقت عن معارف، وأثمرت

ضروبا من العلم، فإن من جاء من بعدهم كان أحوج إلى بذل مزيد من الجهد والعناء في تحصيله.

فإنه كلما امتد الزمن وبعد العهد عن عهد الرسالة كان تحصيل العلم أعوص وأصعب، بسبب ما يتطلبه من وسائل أصبحت بمرور الزمن أكثر صعوبة وتعقيدا، فالرعيل الأول طبعوا على اللسان العربي؛ الذي جعله الله وعاء لكلامه المحكم، ولم يكونوا بحاجة إلى ما استجد من الوسائل لمعرفة هذا اللسان، وإدراك مضامين مفرداته وجمله، ومعرفة أساليبه في التعبير التي يميز بها بين عبارة وأخرى، كما أنهم كانوا أولي مدارك ثاقبة وملكات راسخة مكنتهم من ضبط الأدلة الشرعية، والتمييز بين أنواعها، ومعرفة خصائص كل منها، فما كان يعييهم الأمر عندما يتعارض الخصوص والعموم، أو الإطلاق والتقييد، أو الإجمال والتفصيل، بل كانوا قادرين على إنزال كل منها منزله، والجمع بينها وفق معايير دقيقة ناشئة عن الملكات لا المصطلحات، لذلك كانت فتاواهم في منتهى الضبط والإتقان.

وبتقادم العهد أخذت هذه الخصائص تفتقد شيئا فشيئا، فاضطر الناس إلى ابتكار فنون من العلم تحفظ بها الملكات اللغوية، وأخرى يوازن بها بين الأدلة الشرعية، فكانت نتيجة ذلك علوم اللغو والنحو والتصريف والبلاغة وعلم أصول الفقه ومشتقاتها من الفنون التابعة لها، كما أنهم أضطروا إلى ضبط الروايات، والتأكد من صحتها، فأنشأوا علم مصطلح الحديث، وبهذا لم يعد الخلف قادرا على النظر في الأدلة الشرعية، واستنباط الأحكام منها إلا بعد أن يتقن هذه العلوم، فيتمكن من النظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والغوص في بحارهما، لاقتناص جواهر الأحكام؛ لأنها أصبحت هي الوسائل التي تمكن من الغوص في عمق هذا العباب، وكم تطاول الأغمار فاقتحموا هذه اللجج من غير دراية بطبعها، ولا خبرة بالعوم فيها، ولا تحصيل لشيء من الآلات التي تعين على ذلك، وإنما غرهم الجهل، ودفعتهم الحماقة إلى هذه المهالك، فعطبوا وأعطبوا والعياذ بالله تعالى .

وكم تجد في مجادلات هؤلاء المغرورين من زهد وتزهيد في هذه العلوم، مع نفاستها وتوقف تحصيل العلوم الشرعية عليها، بل تجدهم يزهدون في علم الفقه نفسه؛ الذي هو سفينة النجاة في الحياة، لأن ضبط الأمور بقيود أوامر الله تعالى ونواهيه لا يكون إلا به، فالمغبون من حرم خيره وحجب نوره، فظل يتخبط في حياته لا يفرق بين محظور ومباح، ولا بين مفروض وغيره، يعصف به تيَّار الهوى في مهاوي الضلال، وتدفعه نفسه الأمارة بالسوء إلى دركات الشهوات المردية، والنزوات الجامحة، وتمضي حياته كلها ضلالا وخسرانا والعياذ بالله.

مسائل الدين ومسائل الرأي:

هذا؛ وإن من الجهل المخزي أن يكابر أحمق في مسائل الرأي التي للاجتهاد والنظر فيها مجال واسع، فيحولها إلى مسائل الدين القطعية التي يحرم القول فيها إلا بما نص عليه

الدليل لقطعية دلائلها متناً ومعنى، أو أن يجادل في مسائل الدين فينزل بها إلى درجات مسائل الرأي فيتنكر للدليل القطعي، ويخالفه إلى ما لم يأذن به الله، ولم يجعل لأحد فيه سلطانا.

وكم وقع هؤلاء المغرورون في مثل هذا، فإن وجدوا لأحد من الراسخين في العلم رأياً في مسألة ظنية أوسعوه استنكارا وتوبيخا، وملأوا الدنيا بذلك ضجيجا، كأنما جاء شيئا إدا عندما اجتهد وأسلس للدليل قياده، وجعله لنفسه إماما وحجة، وهم لا يبالون أن يقولوا بجهلهم في الأمور القطعية بما لم يأذن به الله، فيحلوا محارم الله ويحظروا مباحاته، أو يتجاوزوا ذلك إلى القول في الغيبيات بغير ما أنزل الله ﷻ.

وقد فتنوا بذلك كثيرا من الأغرار الجهلة، كما دفعوا بهم إلى أن يخوضوا كما يخوضون فيما لا علم لهم به، على أن الجاهل واجبه أن يسأل عما خفي عليه علمه، وأن لا يتناول القضايا بجهله فيقول على الله ما ليس له به علم، لأن ذلك من أكبر الكبائر، وحسبك أنه مقرون بالشرك بالله تعالى – كما تقدم –،

ومسائل الرأي نفسها – مع ما فيها من السعة وكونها مجالا للنظر والاجتهاد – لا يسوغ لغير الحاذق البصير الذي بلغ درجة الاجتهاد أن يقول فيها برأي، بل واجب الجاهل أن يرجع فيها إلى أهل العلم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وفي هذا يقول الإمام السالمي – رحمه الله تعالى –:

والحق في مسائل الخلاف ... عند جميع القائلين وافِ
لكنه ليس يجوز أبدا ... لغير عالم بها يجتهدا
لأنما له شروط تشرط ... فلا صواب للذي لا يضبط
وإنما يرجح الأقوالا ... من علم الحجة فيها قالا

(١) سورة النحل الآية ٤٣.

وقد يتصور جاهل بغروره وجهله أنه تأهل للاجتهاد، لأنه عليم بحجته التي استند إليها في رأيه، وهو مع ذلك متبع للوهم، ومستأسر للشبهة، يظنها هي الحجة فيما عول عليه، وهذا من أضر الجهل؛ لأنه جهل مركب، كما قال فيه الشاعر:

ومن عجب الأيام أنك جاهل   وأنك لا تدري بأنك لا تدري

كلمة لا بد منها.

قد يظن ظانٌّ: "أن ما قلته هنا أمر مبالغ فيه، وأن الدافع إليه شيء في نفسي، وأنني ما قلت الذي قلته إلا تجنياً على هؤلاء".

وإنني لأشهد الله سبحانه بأن هذا كله إنما جاء بعد معاناة طويلة، وترادف نصائح مني إلى من تولى كبر أمرهم، فكم جلست إليه وأفضيت إليه بما في نفسي، ومحضته النصح، وأقمت عليه الحجة، وكان في كل مرة يتظاهر بالقبول، وإسلاس القياد، ويتعهد على أن لا يعود إلى ارتكاب هذه الأخطاء، ولكنه مع ذلك يظل -مع زمرته- سادرا في غيه، غارقا في ضلاله، يستخف بالنصح والناصح.

على أنني قبل ذلك حرصت على معاملتهم بحسن الظن، ودافعت عنهم في مواقف شتى، اغترارا مني بما يتظاهرون به من حسن الأحوال، ولكن أبى الله تعالى إلا أن

يكشف دخائلهم، ويهتك سترهم، بفلتات ألسنتهم، وعثرات أقلامهم، وفي آخر جلسة جلستها مع من تولى كبر أمرهم حرصت على تسجيل ما يدور بيني وبينه، ليكون ذلك حجة لكل منا أو عليه، لكنه رفض التسجيل أيما رفض، وأخذ يترجاني بأن يكون الحوار بيننا عاديا من غير تسجيل، وليت شعري؛ ما الذي كان دفعه إلى هذا الموقف واضطره إلى هذا الإصرار عليه لو لم يكن يخشى ظهور فضائحه؟!، ولئن أنكر هذا فإنني على استعداد لأن أجتمع به وأتحداه بأن ينكره أمامي، على أن في تلك الجلسة نفسها كان معنا شاهدٌ اطلع على كل ما دار فيها.

هذا؛ ولم يكن مني هذا الموقف الصارم إلا بعدما طفح الكيل، واتسع الخرق على راقعه، ولم يعد الأمر يحتمل التهاون؛ لأنه يمس ديننا، الذي ائتمننا الله عليه، وعقيدتنا التي ندين بها، فلا مجال للمساومة والمجاملة على حسابها، على أننا إن لم نقف بكل قوة وحزم أمام المتلاعبين بالدين؛ لم يقفوا عند حد،

وسينقضون في كل يوم عروة من عراه، حتى نصبح بلا دين والعياذ بالله.

وأنت إذا تأملت إلى الذين ينادون بهذا الفكر القذر في عالم اليوم وجدتهم جميعا شواذ تنكروا للإسلام، وقد التقطتهم الأيدي المنظمة لحركتهم من مزابل الأفكار والأخلاق، فحسبك أن تكون من هؤلاء "إرشاد مانجي" الكندية ذات الأصول الباكستانية؛ التي اعترفت علنا بشذوذها الجنسي، وتطالب – حسب زعمها – بإصلاح الإسلام في إمريكا الشمالية من أجل تقبل الشواذ، "وإسراء نعماني" التي تطالب بأن تقام الصلوات الخمس في المساجد في صفوف مختلطة تجمع الرجال والنساء، و"أمينة ودود" التي أمت المصلين يوم الجمعة في كاتدرائية سانت جون، و"سنادرا ماكايند" المعروف بانتقاداتها للدول العربية، وقس على هؤلاء غيرهن من الرجال والنساء؛

الذين مردوا على الفساد والانحلال، وتمردوا على الفطرة والدين.[1]

وأخيرا موقف لا بد منه .

إن هؤلاء مهما اشتطوا في الضلال، وبالغوا في نكران الحق، يجب علينا أن ندعوهم إلى الرجعة الحميدة إلى ما جانبوه من الحق، وسفهوه من الرشد، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، لذلك أذكرهم بقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي

(1) http://blog.unmasking-islam.net

لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقد دعا الله تعالى أمثالهم بهذه الدعوة، وبين عاقبة قبولهم وإعراضهم، حيث قال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[2].

وعليه فإن تابوا كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وعادوا إلى المقام الذي نزلوا منه، وتبوأوا المكان الذي غادروه، والله حسيبهم ولا تخفى عليهم سرائرهم، وإن أصرُّوا على باطلهم، وأخلدوا إلى هواهم، وآثروا العمى على الهدى، والغي على الرشد، فلا يلوموا إلا أنفسهم، إذ الأمر في هذه الحالة لا بد فيه من أن يمتحن الله سبحانه إيمان المؤمن، وصدق الصادق،

(١) سورة الزمر الآيات ٥٣-٥٨.

(٢) سورة براءة الآية ٧٤.

فالواجب يتحتم على كل من علم بأحوالهم واطلع على ضلالهم أن ينزلهم حيث أنزلوا أنفسهم، وقد نص على هذا الاختبار قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة هود الآيات ٤٥-٤٧.

(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢.

وبهذا يتباين الفريقان؛ فريق الحق وفريق الباطل، ويتميز الحزبان؛ حزب الله المفلحون وحزب الشيطان الخاسرون، فلا مجاملة على حساب الحق لمحبة حبيب أو قرابة قريب، وقد جعل الله تعالى لنا أسوة حسنة في هذا الأمر، فيمن امتحنهم الله سبحانه من قبل في إيمانهم وثباتهم، فقد حكى الله ﷻ قصة نوح ﵇ في قوله:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليل لهذا الحكم، فكل من عمل غير صالح فهذا حكمه الذي لا مناص منه،

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢.

ويؤيد ذلك ويوضحه قراءة الكسائي – وهو أحد القراء السبعة – ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ وهي قراءة مروية عن أربعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومثلها قصة إبراهيم عليه السلام، فقد قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة الآيات ٤-٦.

وناهيك بما في هذه الآية الأخيرة من الإيذان بأن من لم يتأس بهم ليس هو من الذين يرجون الله واليوم الآخر، والتهديد الذي تضمنه قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

على أن ما في هذه الآيات مقتض وجوب التأسي بإبراهيم والذين معه إلا في قول إبراهيم لأبيه: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإن ذلك لم يشرع التأسي به، لأنه مستثنى من هذا الحكم بالنص الصريح، إذ هو كان لسبب معين بينه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

هذا؛ وإني على يقين بأن هذه الدعوة ستتبخر كما تبخر ما قبلها من الدعوات الباطلة، ولكن الله تعالى أراد امتحاننا ليبلو إيماننا، وغيرتنا على دينه وحرماته، وإلا فكم دعوة سبقتها

(١) سورة براءة الآية ١١٤.

ملأت الدنيا ضجيجاً، ووقف وراءها الكفر بغلوائه وكبريائه، وساندتها أمة الكفر بعدتها وعددها، فكانت نهايتها عبرة لأولي الألباب، ناهيك بالشيوعية الحمراء التي جاءت بجحيمها المستعر، لتهلك الحرث والنسل، وتأكل الأخضر واليابس، وتأتي على الطارف والتليد، ولكم عانينا من الذين أشربوا عقيدتها، وسرى حبها في عقولهم، وقلوبهم، ولحومهم، ودمائهم، حتى أن عندما نحذر منها، ونبين لجماهير الناس خطرها الداهم، وشرها المستطير، كانوا يتهموننا بأننا نقف منها هذا الموقف لأننا عملاء للإمبريالية العالمية، وأننا أبواق لدعاياتها، وكانوا يتجاهلون أن موقفنا هذا ناشيء عن عقيدة ترفض الكفر والإلحاد، ولا تبغي بالإيمان بديلا.

ومع كون تلك الدعوة المخزية الكاذبة مدججة بالسلاح، وتقف وراءها قوة كبرى - بمقاييس الخلق - تملك ترسانة نووية مرعبة، ما لبثت أن تهاوت وتلاشت وكانت عارا وشنارا على أهلها، وقد قام عليها أبناؤها الذين تغذوا بمبادئها،

وأشربوا أفكارها، فنقضوا بنيانها، وهدوا أركانها، حتى أصبحت عبرة لأولي الألباب، وصارت وصمة في جبين تأريخ دعاتها وحماتها، وولت كما ولى أمس الدابر.

وهكذا ستنتهي هذه الدعوة وستكون وصمة عارٍ في تأريخ دعاتها، إن لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة، ويثوبوا إلى الرشد، وسيرون يومئذ كيف تجري فيهم سنة الله التي مضت فيمن قبلهم، وسيدركون معناها الصحيح الذي جانفوه في تأويلها، فمن لم تكن له من غيره عبرة كان لغيره موعظة وعبرة.

من لم تفده عبرا أيامه كان العمى أولى به من الهدى

هذا؛ وقد يلاحظ القارئ الكريم أنني حرصت على أن يكون استدلالي في نقض أباطيل وأوهام هؤلاء بالنصوص القرآنية، من غير أن أشفعه بالاستدلال بالأحاديث النبوية، مع أن القرآن والسنة كل منهما أصل أصيل في تشييد دعائم الحق، وتبديد نسيج الباطل، وما ذلك إلا لأن أولئك القوم ضربوا بالسنة النبوية عرض الحائط، وادعوا أنهم بذلك يحافظون على

مكانة القرآن، فأردت أن أحتج عليهم بما يزعمون أنهم يحافظون عليه، ويحرصون على الاعتماد عليه، من غير أن أكون في ذلك معرضاً عن السنة والاستدلال بها، وإنما رجوت أن يكون المنهج الذي اتبعته أبلغ في إقامة الحجة عليهم، ودفع ما جاءوا به من الضلال.

وإني أسأل الله سبحانه الوقاية من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وأن يكون بالمرصاد لكل من أراد بنا أو بديننا سوءاً، وأن يكلأنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأن يرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلا وأن يعيننا على اجتنابه، إنه ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٦ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ

الفهرس

تم بحمد الله

رقم الأيداع : ١٧٧/٢٠٠٨